غادة السمّان

لا بحر في بيروت



منشورات غادة السمان

لا بحر في بيروت

ـ لوحة الغلاف الاول للفنان رينيه ماجريت ،رسمها عام ١٩٥٢
واسمها « قيم ذاتية ».

ـ الخط: للفنان حسين ماجد .

ـ تنفيذ الغلاف للفنان نبيل البقيلي

غادة السمان

لا بحر في بيروت..

قصص

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان

بيروت ــ ص . ب ١٨١٣ ١١
تلفون ٣٠٩٤٧٠ ــ ٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى: تشرين الثاني ١٩٦٣
الطبعة الثانية: تشرين الأول ١٩٧٣
الطبعة الثالثة: آب ١٩٧٥
الطبعة الرابعة: حزيران ١٩٧٨
الطبعة الخامسة: حزيران ١٩٧٩
الطبعة السادسة: تشرين الأول ١٩٨١
الطبعة السابعة: كانون الثاني ١٩٨٥
الطبعة الثامنة: كانون الثاني ١٩٨٨
الطبعة التاسعة: تموز ١٩٩٣

الإهداء

أبي
وهذا أيضاً من نزف المعركة
وهذا أيضاً لك أنت
فما زلت وحدك صديقي وفخري
بإخلاص أرفعه لك
بعد أن انتظرت بإخلاص أن يكون لسواك
وانتظرت حتى لحظة الطبعة الأخيرة فيه
وحتى اللحظة الأخيرة
ظللت وحدك قبلة عطائي

غاده

العاصفة تشرنق المدينة بالمطر والظلمة وزعيق الريح . غرفتي خائفة مدفونة في أحشاء البناء ، الساعة تلهث فوق الحائط وتكاد عقاربها تشير الى الثانية عشرة . مكتبتي المتخمة تتوهج بالتحدي ، والمطر يتطفل على النافذة ، وعلى وجهك الذي يطل أبداً خلف أية نافذة منذ عرفتك .

أمامي حقيبة سفر مفتوحة ستكون ممتلئة بعد دقائق .. وورائي ساعة وحائط ومكتبة تمردت عليها لأني اخترت النافذة والمطر ، والظلمة والمجهول ، ووجهك الذي يطل أبداً خلف أية نافذة ، ولأن في صنين ، وراء الثلوج وراء المطر ، وراء اللون والصوت والصدى ، قمةً منسية في آماد الوحشة اللامتناهية ، ولأننا سوف نبحث عنها ، سوف نذهب اليها ، سوف نحترق فيها ، وسوف نتطلق منها الى الحقائق الصلبة النائية ، ولن نعود وسوف نهوّم طيرين ، ذئبين ، ذرتين ، ولا شيء سوانا .

سيقولون هربا !

ولن نلتفت لنقول لهم اننا لم نهرب وانما رحلنا حينما فقدنا إحساسنا تماماً بوجودهم .. انني أسمع مديري يصرخ : « تلك المجنونة ! كانت أكثرهن ثقافة واتزاناً وعملاً . »

ثم تتولى زوجته شرح الحكاية المثيرة للصديقات ، وما أكثر صديقاتها يوم تولم في الدار فضيحة : كنت أتوقع لها ذلك منذ البداية ، عانس ،

جميلة ، ولا أهل لها ، كتاب واحد في مكتبتها الضخمة يدفع بأي عاقل الى الجنون .

فليقولوا ما شاءوا ، يا ثيابي المتهاوية في الحقيبة الفارغة ، لن أتردد يا قمة في صنين ، يا وجهه خلف النافذة ، يا سأم أعوامي الثلاثين العذراء بين صياح مؤذن وناقوس كنيسة . حواء استيقظت ، فليسجد الغاب . لن آخذ معي أي كتاب . لتكن للمرة الأولى حقيبة أنثى !

الساعة تزداد وجيباً فوق الحائط . دقاتها الاثنتا عشرة تكاد تحتل المدينة . لا ريب في أن زوجتك الآن نائمة ، وأولادك نائمون ، وأنت تنسل من غرفتكما هارباً منها ، من الحكايا الرتيبة اللزجة المكدسة في ثنيات منخريها ، من أرجوحة السأم المعلقة في كل زاوية من الزوايا . تحمل حقيبة هيأتها منذ النهار ، وتنسل نحو الباب بهدوء لتنتظرني عند الشجرة قرب بيتك . لن أتأخر ، يا صدرك العريض اني قادمة. أحاول أن أحمل حقيبتي بعد أن أغلقها ، انها ثقيلة تشدني الى الأرض ، الى غرفتي ، وبيتي ، انتزعها وأخرج من الغرفة. أذرع خفية تمتد منها ، تحاول أن تقبض عليّ ، أن تعيدني الى سكينة يأسي فيها . لن أبقى هنا أجتر عمراً عقيماً أبله الانتصارات .

أهبط الدرج بحقيبتي ، ترى في أية غرفة سوف أفتحها ، وعلى أي مشجب سوف أعيد ترتيبها ؟

لا أدري لماذا يغمرني إحساس كلي مكثف بأن ذلك لن يكون أبداً .

أمزق تلك الهواجس وأنا أفتح باب سيارتي الصغيرة . ألقي بالحقيبة على المقعد الخلفي . أدير المحرك . أتمهل دقائق ريثما أدفئه . انطلق اليك. التفت نحو بيتي . اودع استكانته في التواضع الصامت الذليل بين بقية البيوت . اني أتفجر ، أتمزق شوقاً للرحيل. ثلاثين عاماً وأنا أبحث وعبثاً أبحث ، وأنا أظن أحياناً اني وجدت شيئاً .

كنت فأرة مكتبة . رقصت مع شياطين « ميلتون » ، وطفت بالجحيم مع دانتي ، وزحفت في أزقة باريس مع زولا ، وتهكمت مع فولتير ، وماذا بعد ؟لا شيء ؟ لا شيء سوى اني لم أجد الحقيقة التي تسندني. تعيد خلقي، تميزني ، تمنحني خصوصيتي في هذا الضياع الرحب . لا شيء . ميدوزا الثقافة حجرتني ، زادتني تشوهاً ، وظل السؤال يمزقني : وماذا بعد ؟ وما معنى هذا كله ؟

حتى التقينا ، فعرفت أن الحقيقة الوحيدة هي الرجل المحب المحبوب. لا ، لست نادمة ، أنت فرصتي الأخيرة والوحيدة . ولن أتردد

اتجه صوب المكان الذي اتفقنا على اللقاء فيه . أكاد أصل . أرى بيتك غارقاً في سحب الكسل والموت . أنت شهاب يضيء عند الشجرة، أتجاوز بيتك أتوقف أمامك . ألتقطك . حقيبتي تتأوه نشوى تحت ثقل حقيبتك التي ألقيت بها الى المقعد الخلفي وأنت تجلس الى جانبي .

من جديد يتوهج جو السيارة .

من جديد تطل العينان العجيبتان ، من جديد أخفف من سرعة السيارة لألتفت الى وجهك ، الى الثنايا المعتقة التي أغرق نفسي فيها ، فأحس بترف الحب ، بنزق الحب ، وأحس بك ، بكيانك ، بأشيائك المحببة تحوطني ، تلملم خيبة أعوامي ، تلملمني من المكتبة ومن الشركة ، من ليلة حزينة ومن شارع مقفر . تلملم شعثي فإذا أنا قطة مخملية تطمر نفسها في رماد موقد مطفأ يشع دفئاً عذباً . أحب رمادك أيها القابع الى جانبي . يدك تتسلل لتغرق في شعري . تنعشني الأنامل المبدعة المدغدغة ، الأنامل التي طالما أبدعت حكايا للناس ، الأنامل التي ترحل اليوم لتكتب قصتها هي ؛ قصتها وحدها ؛ لتروي كيف تتمرد نفوسنا فنهب من صيغنا الاجتماعية من قوالبنا في متاحف الشمع ؛ نمزق أربطة ثقافتنا ؛ ونتحدى عقم الأشياء ، فنصر على حقيقتنا ؛ ونبحر مع الليل؛

مع الزوبعة ، كي نحطم جدار العجز والاستسلام ، وننطلق خارج أسوار المدينة اللامرئية نكافح عدواً نجهله هو بعضنا .

تهمس : « الى أين ؟ » .

أحب صوتك ، أتلذذ بطعم الصدى في صدري . الى لا مكان ، إلى لا زمان ، الى حيث أغنية الجبل الزرقاء الداكنة .

وتتلاقى نظراتنا . في مد الموجة قرارة يأس . في نزق عنفنا لذعة مرارة كأنما نحن نؤمن ، ونرفض أن ندري ، أن لا مفر من أسوار المدينة .

وأعود بنظراتي الى الشارع الذي يحملني بعيداً عن أسوار المدينة ، أنتعش وأنا أرى عجلاتي تأكل منه ، وتعود تسألني : الى أين ؟

الى ما وراء الثلج ، ما وراء الألوان والأصوات !

البارحة ..

البارحة لما انصهر الوجود كله ليستحيل الى أنت تودعني عند الشجرة، قلت لي كما لا يفعل أبطال قصصك : « لماذا لا نرحل ؟ »

ولم تبد لي فكرتك غريبة كما كانت تبدو لبطلات قصصك . فأنا أعرفك كما أعرف نفسي ، وأعرف اننا ورقتان فقدتا كل ارتباط بأية شجرة في البستان ، وان أية نسمة يمكن أن تحملها بعيداً الى بيداء ، الى بحر ، الى قمة ، الى لا مكان . كما تحملنا الآن شلالات المطر التي تزداد عنفاً وشراسة ، لحظة بعد لحظة ، كأنما نحن نتغلغل نحو مركز الأعصار.

انك تسترخي في مقعدك بينما تطفو على وجهك أحزان عتيقة ، لا تقل شيئاً . اني أفهمك . اني أسمعك تردد كما تردد دائماً حينما يرتسم هذا الحزن في ملامحك :

« لقد تحنطت يا سنية .. أحس إحساساً مفجعاً بأنني سنديانة عجوز مقطوعة ميتة الجذور ، في جبل منبوذ كانت له أمجاد غابات. عمري ألف عام من سأم وغربة . حينما أنظر في عينيك ينشق خريفي عن برعم » .

انك تلتصق بـي كطفل متعب .. لا لم تستهلك نفسك ، غداً تتجدد في صنين !

أظل أنطلق بسرعة في الدرب الى لبنان ، ألحظ انك تعالج حلقة في بنصر يدك اليسرى ، تخلعها وترمي بها من النافـذة . الى يدك أسترق النظر . ما زلت أرى حلقة صغيرة مضيئة كوشم الجمر تحيط باصبعك في المكان الذي كان يشغله الخاتم .

مخفر أمن الحدود يضيء . نتوقف نـبرز هوياتنا . تتحرك الملامـح المتماسكة لضابط ، فتنشق عن فم يقول : « الطقس ينذر بعاصفة ، وقد تغلق الطريق في أية لحظة . من الخير لكما أن تعودا » .

لا نجيب ، نمضي بعض لحظات ونظراته المستنكرة تلاحقنا . تنقضي عدة دقائق . نتوقف مرة أخرى – ضابط آخر . بعد لحظات ننطلق في سهول شتورة نحو جبال لبنان . حطمنا جـدار الصمت ، جدار الأيدي العتيقة ذات الأصابع المشيرة أبداً الى وجوهنا .

بدأت الدرب تصبح صعبة . الصعود شاق. القيادة في هذا الليل الوحشي متعبة . أنت صامت ، ماذا بك ؟

تهمس متعباً : « الى أين ؟ »

ولماذا الى أين ؟ ما الفرق ؟ غداً ، بعد غد ، في لحظـة ما سوف نكون هناك في القمة ، وسوف نخشع لأغنية الجبـل الزرقاء حيث تتطابق الحقيقة المكثفة مع الأسطورة في واقع لم نألفه . وهناك سوف نبدأ انفصالنا النهائي عن الأشياء التي لم نخترها يوم ولدنا . سوف نصنع وطننا ولغتنا، وسوف نتصعد ، نعود كما كنا قبـل أن تفرض علينـا قوى عديدة ، طيرين ، ذئبين ، سمكتين ، انسانين مطلقين حررا حبهـما من القوالب المسبقة والآخرين ، المطر يشتد . السيارة تتماوج كأنها بـين فكي شلال أهوج . الريح تصفعها تركلها من كل جانب. غضبة الليل العاصف تأكل من أنوارها . بدأت أغـرق في إحساس مرعب أكيـد : انني أقود دون

أن أرى شيئاً ! تعب حقيقي ملتاع ينبثق في جوارحي كلها. ضوء السيارة يغرق أحياناً في هوات مرعبة لوديان فاغرة الأفواه من جانبي الطريق . وبلا وعي مني أضغط بقدمي على الكابح . أنينه مخيف . رغم ذلك كله، ورغم انني أسمع صرخات عشرات الناس الذين انزلقوا الى الوديان في مثل هذه الليلة ، فإن فكـرة العودة تبدو سخيفـة ومهينة . اذا سقطت فلن أصرخ . الدرب ضيق ينزلق بين تارة وأخرى على شفـة الهوة ، أسيطر على العجـلات وأنت صامت الى جانبي وقـد بدأت تشع خوفاً . ماذا بك ؟

وتهمس متعباً : « الى أين ؟ »

وأود من قلبي كله أن أقول لك الى لا مكان الى لا زمان ولكنني أحس ان يدي المسكتين بالمقود تؤلمانني وان عليّ أن أحدد مكاناً أريحها فيه .

— الى أين ؟

لا أجيب ، أغرق في عجز مكابر ، على أية حال سوف نذهب ، لن نعود . لن نقهر ولو هزمنا . لن نتوقف . اتمت اليك حينا أصل الى هذا الحد من التصميم . في النور الباهت أراك تحدق الى وجهي بذعر حقيقي ملذ . وفي عينيك أرى صورة الفتـاة التي تتأملها مجنونة الملامح هوجاء النظرات .

ويزيدني رعبك رغبة ضارية لتحسس مدى قوتي . اني أعبد نفسي . أخافها . كيف انبثقت هكذا فجأة دنيا من الرفض ؟

أسمعك تهمس بعجز : انها ليلة رهيبة ، والعاصفة على ما يبدو شاملة. لقد نسيت أن أغلق نافذة غرفة الأولاد قبل رحيلي .

نافذة غرفة الأولاد ؟ أما زلت تسمع صوتها والريح تتلاعب بها حتى الآن ؟ وأنت أيضاً ما زلت ساقطاً في شرك الحياة العادية ؟ وروايتك ، روايتك الحقيقية لن تكتبها . والحقيقة الكبرى لن تعرفها ما دمت عاجزاً عن اغتيال شخصيتك الثانية التي تتقاسمها مع الناس كلهم، مع أتفه الناس!

تقترب ، لا أقول لك شيئاً ، أدرك بأسف حقيقي انك دون رحلتنا وانك عاجز عن الانسلاخ وعاجز عن الاستمرار . جذورك ما زالت هناك عقيمة ، تدمر فنك ، تتكدس في غرفة أطفالك ، تلبلب حول قوائم الأسرة ، تتمسك بالأغطية كي لا تنحسر عنهم ، وتلاحق النوافذ المتمردة فتغلقها . أسألك وأنا لا أعني ما أقول : هل نعود ؟

تجيب لا أدري . انك تتمزق ، أعرف أنك تتمزق ، أيقظت العاصفة الزوج الضئيل في نفسك فحبيت إليك أركان السأم الدافئة . أما أنا فجذوري هناك في صنين. أسمع في العاصفة أصداء أغنية الصخور ذات الانفصال الحاد الصارم عما حولها .

أزيد في سرعة السيارة . صنين يولد في كل منحنى حيث يسطع الموت بين عجلات السيارة . انك عاجز عن متابعة انطلاقي . انك طفل، أحس انني أخلفك ورائي كوكباً ساكناً مطفأ يرقب برعب سخرية شهاب يسطع محترقاً . انك طفل من مدينتهم . خطفتك جنية من الغابة القريبة وجاءت بك لتعيش معها في قممها وحاولت تعويدك طعام الجنيات المجيد ، لكنك تبكي طالباً ضرع أمك . وفي المدينة ملايين الضروع ، بودي أن أعيدك. لكنني أنا لن أعود !

تهتف بي مذعوراً لصرير الكابح المخيف : ماذا دهاك يا سنية ؟ هل جننت ؟ قفي قليلاً ودعينا نتحدث !

نتحدث ؟ ولماذا ؟ كي نضيع همجية حقيقتنا ؟ كي تعيدني الى أربطة مومياتي ؟ الى أجواء متحف الشمع الذي هربنا منه ؟ لا . لن أحدثك. ألا تشعر بنشوة الرعب والرفض ؟ نشوة التحدي والقمم ؟ نشوة الثورة حينما تجدد خلقنا . اني انطلق ، أحترق ، يا نشوة الصنوبر حينما تلفحه النار بعد ما تكدس ثلاثين عاماً في مخازن الحطب .

تمتد يدك الى المذياع وتفتحه فجأة . لا شيء سوى أصوات مشوشة مختلطة . ما زالت يدك تبحث عن همهمة إنسان . عن همسة من عالمهم.

لكن أغانيهم ونكاتهم وبرامجهم قد استحالت الآن الى لا شيء. في العاصفة تسقط الأقنعة وتتهاوى الأشياء المزيفة.

محطة واحدة. صفير واحد متقطع هو كل ما استطاع أن يقاوم العاصفة ويطل من إحدى المحطات. انك تثبت الابرة بصعوبة عليها ربما تلتقط أنفاسك وتجتلي معانيه.

الزوبعة أمست أثقل من أن تحتملها سيارتي، ويداي بدأتا تسترخيان فوق المقود، لكنني راضية بدنيا الجبروت التي فوجئت بها لحظة تحديت الأصابع المشيرة وخرقت أسوار مدينتنا. لكنني أتعذب. أحس أن جسدي بدأ يخون فكري. وبأن طاقتي الآدمية لن تستطيع اللحاق برغبات الجنية وثوراتها في أعماقي، يا حسرة آلهة مكتوب عليها أن تتعب وتشقى وتموت. لا مفر من ذل سلاسل آدميتنا. يا رأسنا بين النجوم.

السيارة تتماوج بغرابة كأنها تعاني عطلاً ما. أنت تترك المذياع وتتمسك بمقعدك، تظل الابرة ثابتة على المحطة الوحيدة العجيبة التي تقدم لنا العالم الخارجي، نسمع صفيرها بوضوح رغم عويل العاصفة، صفير رمزي لسفينة. نداء الاستغاثة، صفير رتيب حاد يرسل رموزاً لكلمات مقتضبة مرعبة: أنقذوا أرواحنا! ولحظة بعد لحظة أهوى من قمم الجنيات وأنحلل. أغرق في النداء الانساني المخيف. وأرى انك تجمد فلا تمد يدك لتسكته.

ولحظة بعد لحظة تنقشع أغنية الجبل الزرقاء، وتنزاح ضباباته وغماماته ورموزه فينفتح سره عن حقيقة واحدة. عن سفينة ضائعة في مكان ما من هذا البحر الواسع. سفينة ينتظرها القاع. كم يمزقني أن أحس بالعجز. عبثاً ترسل صرخاتها في المدى الغامض: عبثاً تستغيث. لن تسمعها سوى سفن مشابهة تنتظرها أعماق مشابهة ويشدها اليها مصير واحد. ولحظة بعد لحظة يمتصني نداء الاستغاثة المرعبة وامتصه. وأحس بأنني أنا من بعض تلك السفينة الضالة. مسمار صدىء في أحد أركانها. في

مكان ما من هذه الأمواج المتلاطمة ، في مكان ما سوف استسلم لنداء القاع وسوف تبتلعني الموة دون أن يحس إنسان بحقيقة معنى زوالي .

تمتد يدك لتسكت شؤم النداء المؤلم . قبضتي تتلعثم وراء قبضتك ثم تطبق عليها وتظل ممسكة بها . لا تهرب . هذه هي الحقيقة الوحيدة .

— انقذوا أرواحنا — تنتحب باخرة ما ضالة في بحر ما — انقذوا أرواحنا — غداً يقولون هربا فتحطا مع سيارتهما. لم تعد لسيارتي عجلات أسيطر عليها . أحسها تعوم متحررة من يدي والمقود ، تعوم في بحر مظلم أهوج متلاطم .

أحس بالخدر . بصوت واحد متقطع عذب يصفر به صدري المنخور ويمتزج مع نحيب الباخرة ، وفجأة أراها — الموة أمامنا . تتوهج الأضواء دفعة واحدة وتتدفق اليها مع المطر والرعب . أرى القاع الى حيث تندفع السيارة . صراخ . انسجام عجيب بين الصراخ والصفير الملحاح . يدي في يدك . القاع ... أين النور ؟ لا شيء .

لعنة اللحم الأسمر

في كل ليلة يا صديقي،حينما تتزلق المدينة في أحضان الظلمة والصمت، وتنام عيون أهـــلي في الدار ، انسلّ أنا من فراشي ، وأتسلل بصمت اللصوص .الى غرفة المكتبة كما أتسلل الآن . وفي كـــل ليلة يا صديقي أتحسس جدران الممشى في الظلمة فأحسها طويلة مخيفة كدروب الأساطير، مطلية بوجوه صغيرة نافرة . تقفز فجأة أمام وجهي ثقيلة الأجفان، حادة الأنياب ، فأصطدم بها بلاشيء،وأتعثر بالشاطر حسن وعلي بابا والساحرة، وبأبطال الحكاية التي كانت تقصها عليّ أمي أيام طفولتي وأود لو أصرخ كما أود الآن ، وأمد يدي أمامي لأتأكد ان ليس ثمة أحد ، كما أمدها الآن

اني أتماسك . لن أصرخ . أريد أن أصل الى المكتبـة ، وأريد أن أشعل عود البخور في الركن المعتم ، وأريد أن أقبـع أمام الهاتف كاهنة عذراء ساذجة أعدت لك المعبـد والبخور والضحية الحارة ولم يبق إلا أن ينبعث صوتك من سماعة الهاتف ، وكأنما من كـــل مكان ، قاسياً حنوناً غامضاً .

الى غرفة المكتبة أصل ، ببطء أدفع الباب ، أنينه الخافت يرعبني . عمي المشلول لا يمكن أن يوقظه صريره ، ولا صورة أمي الميتة المصلوبة على الحائط ، لماذا أنا خائفة ؟ نشوتي الكبرى كل ليلة في أن أتساءل : لماذا أنا خائفة ؟ كاذبة ! تومض الكلمة كبيرة حقيقية : كاذبة ! لست

خائفة . لمـــاذا أحب أن ادعي بنفسي ذلك وأصر عليه ؟ لماذا استدعي رعشات الصبا الأولى أقبلها لكي أعيشها .. لمـــاذا يا نفسي لم يبق لي إلا أن أخدع نفسي ؟ شبحاً عجيباً انهض كل ليلة من فراشي لأنبش مقابر الليل بحثــاً عن طفولتي ، عن مثلي ، عن أوهامي .. كاهنة مرعبة ، استميت لأبعث أصنـــامي ، ادعيها ، أتبناها من جديد وأنا أعرف لا جدواها ..

لماذا كل ليلة أحدثك بالهاتف ، أحيلك الى رجل مقطر في صوت ، ولا أريد منك إلا الصوت ، أنا التي أستطيع ببساطة أن أذهب اليك ، ان أقضي ساعات بطولها لديك ، فأنا امرأة عاملة ومسؤولة . لماذا أعود بعد كفاح مرير لأتصرف كابنة الخامسة عشرة ؟ لمـــاذا استدعي ظلال المراهقة : الليل والبخور وعبير الياسمين لألقاك في أفيائها ؟ أية خيبة في اللحم والدم ردتني الى أجواء الأثير .. الى حديث ، لا أتجرع الرجل إلا بعد أن تحلله شحنات الليل والبخور الى رجل مقطر في صوت ، الى حلم ليلة صيف .

لا أحد في المكتبة سوى خفق أنفاس الياسمين اللاهثة عبر النافذة ، في الركن لثبت عود البخور ، وكما في كل ليلة تنجذب نظراتي الى صورتها الحبيبة البغيضة على الجدار وأرى ملامحها تمتد وتبهت تمتزج ذراتها المشوشة بالحائط فأحسهـــا من بعض الحائط ، من بعض الحجر والاسمنت . اني أكرهك يا أمي ، يا بعضاً من الطلاء والحجر . لماذا انتحرت ؟ لمـــاذا تآمرت مع عشيقك الموت وتركتني ومضيت ؟

أناملي يلذعها عود الثقاب الذي نسيته . أتركه على الأرض ، عـــاد كل شيء يتمرغ في أحضان الظلام ، ثعابين الدخان المعطر تتصاعـــد ، تتلوى ، تتلوى راقصة شفافة ، تتأوه بصمت . أحس في تثاقلهـــا نداء مكثفاً لدنيا عجيبة قصية ، هي مملكتي ، تنبسط كل ليلـــة حينما ينطفىء

المكان والزمان وعود الثقاب ، تبدأ حدودها عند أول شعاع ترسله أضواء الشارع الباهتة في المكتبة،وتمتد على طول شريط الأضواء الباهتة المحدودة في شوارع طويلة فارغة ، وتتلوى مع الشريط الذي ينطفيء في الصحارى والبحار ، ليلوح من جديد شاحباً متعباً في مدن أخرى سحيقـة ، وأنا أمتلك هذه الدنيـا التي أحيلها جديدة مغرية بعد أن ينحسر النـاس في شوارعها الى علبهم ، وبعد أن تتوقف العجلات والحافلات وتهدأ يـد شرطي السير في جيوبه ، فيصمت عالم الدم واللحم ، عالم الخيبة ، عالم الوجوه العاجية الكامدة التي قد تستأجر البارمان ، كي يخض لها الدواء . وتبدأ حدود مدينتي ، مدينتي الكبيرة ، كل مدينة ، مدينـة الصمت ، وعيون الشريط الكهربائي المنورة الشاحبة ، المترقبة أبداً ، مدينـة الأثير وأنا سيدتها ، وأنت بصوتك العجيب تبعثني ، تجدد خلقي وتؤكد لي أن الأثير حقيقة ، وفي موجات صوتك الحارة كالبهار الأسمر أتقلب . تعلمني من جديد كيف أهجر المقايضة لأحلم وأهذي وأكون أنا . أحبك يا رجلاً مقطراً في صوت لم تدنسه بعد لعنة الدم واللحم . بعد دقائق أسمع دقات الساعة الاثنتي عشرة ، وحينما تغيب آخر دقة ... وبينما يدي ترتعد متوترة على سماعة الهاتف سيسطع في قلبي هديله ثم يتدفـق صوتك ، يغمرني ، يتوجني ملكة من أثير تضم اليها رجلاً من دخان .

عود البخور العجيب يزفر أنفاسه . أحسني اتحد بها . أتحلل وأتمـدد معها من جديد ، كثيفة غامضة تتوق الى نشوة التلاشي في حنايا مدينتنا السحرية .

الساعة بدأت تدق . يلذ لي جوعي اليك ، أحب أحاديثك ، أحس فيهـا رنة غامضة كالنحيب المكتوم ، كتوتر سر خفـي تكاد الحروف تتمزق عنه .

دقة الساعة الأخيرة ماتت منذ حين . الهاتف لم يرن، سندريلا هربت

من أميرها ، والمدينة سقطت في حضن الليل الصامت ، وأنت لم تهتف . للمرة الأولى تتأخر . ماذا حدث ؟ لعل ساعتك تخلفت بضع دقائق ، سوف أنتظر بضع ثوان لا أكثر ثم تتلقف المدمنة جرعتها المخدرة . الدقائق تمر بي شامتة ساخرة . الهاتف ميت . العالم الذي ابتدعته بك ومن أجلك يهتز . الساعة عادت تدق . دقة واحدة . أستسلم للمقعد . أرقب بذعر . بصيص البخور يكاد ينطفىء وغيمة الأثير بدأت تذوب . المرئيات بدأت تتضح وأنا أكاد أعود أنا . وخوف حقيقي يغمرني . إحساسي بالمدينة بدأ يعاودني،أحس بأنني أسقط في شوارع طويلة مزدحمة، تشرق عليها الشمس محرقة ثم تغيب بسرعة خاطفة للأبصار،لتعود وتشرق وتغيب،والشوارع مزدحمة بأحاديث سريعة غير مفهومة وبشهوات متراكمة في عيون رجال فارقوها برهة وسوف يعودون ، وهي لهم وحدهم . في كل حجر من أحجار الرصيف آثار أقدام ، وعلى كل جدار بصماتهم . على كل شيء بصماتهم . عليّ أنا . أين صوتك يخدرني ؟ علي أنا . اني أسقط في القبو .

لما اقترب مني ذلك الأبله ، قلت له : اني أبحث عن رجل عيناه نجمتان . دعني . قال : تعالي .. أنا أبدع نجوم المدينة . وكان له متجر كبير ورائع ، في زاويته قالب حلو لامرأة ، قال : انصهري فانصهرت، قال انسكبي فانسكبت . قال كوني فكنت ، واذا بي دمية من زجاج شفاف ، وانطلقت في المتجر وكان مملوءاً بالدمى الحلوة مثلي ، لكنهن كن سعيدات في المتجر يقضين النهار في طلاء وجوههن وإلصاق الشعر المستعار برؤوسهن،ووجدت انه كان قد اقتلع عيونهن واستبدل بها ماسات وجواهر .

وأخذت أنتحب ، ولما وجد انني أبكي ، تذكر انه كان قد نسي شيئاً فعاد ليقتلع عيني كي لا أرى انني دمية وانه مزيج غوغائي من لحم وعرق ودم ، قال لي : اقتربي . أحب لحمك الأسمر . صرخت :

دعني .. هناك أشياء كثيرة أخرى هي أنا . قال متعجباً : كم هو وزنك لأعرف من أنت ؟ وهربت من المتجر ، هربت أحمل لعنة اللحم الأسمر. ولما التقيت بالرجل الآخر وقال لي : أحبك ، أحسستني أميرة الندى ، ولما غمزت في خضرة عينيه ظلال حمر أعرفها ، صرخت.. سوف أكرهك حينما تلمسني ، وسوف أتلذذ طويلاً بعذابي لأني كرهتك .

وتعذبت كثيراً ، وتلذذت كثيراً ، وكرهت كثيراً . عبثاً مزقت الوجوه بأظافري بحثاً عن رجل عيناه نجمتان تمطران حناناً أخضر ، لكن الرجال الذين ضيعوا أنفسهم لا يشعرون . أين أنت يا عموداً من دخان لم أكرهه بعد ؟ لماذا لا تحدثني ؟

الساعة تدق دقتين ، عود البخور انطفأ ، اني أتحلل بعدما كنت قد اتحدت به ، يعاودني إحساسي بثقلي النوعي ، يدي عادت يدي،وجسدي عاد جسدي ، وصدري عاد يعلو ويهبط متعباً ، موحياً بمباهج مرعبة ، وأنت الذي رفضت أن أراك البارحة وكل بارحة ، أتمنى لو انك الآن أمامي ، لأن البخور عاد رماداً دقيقاً تافهاً ، والياسمين انحسر ، والليل عاد ليلاً بشرياً مشحوناً بأصداء غناء جماعي في ليال تعبق برائحة الشواء الحار والضحك والشراب ، وأنا أضج برغبات كاهنة شهوانية في معبد من جليد . لماذا أحقد عليك وأنا من بعض لعنة اللحم والدم؟ لماذا أحقد على الظلال الحمر في عيون الآخرين وأنا من بعض حرارة الظل ووهجه وعنفوانه ؟ أنا لا أدري من أنا ، اني أتمزق . اني عذاب الماء تعشق النار ، يضمهما جسد واحد . لماذا لم تخدرني بصوتك الليلة ؟

لا مفر من أن اشعل النور ، تسطع الأشياء ، المكتبة ، صورة أمي ، أنا وأشيائي الممزقة ، حاجتي اليك ، لم أعد أقوى على الانتظار . انهار . أعبد القوة في انهياري . أتحدى نفسي . سوف أهتف لك ، لا ريب في أن رفضي الدائم جعلك تسأم وتمضي متمرداً على قدر الأثير،سوف أهتف لك،قد تكون أنت رجلي الذي يستطيع أن يخلق التعايش بين النار والماء ،

لماذا أغلف رغبتي بك بالأمل ؟ فلأعترف ، لقد أدمنتك ولا خيار لي، وإذا فشلت ، فلن أكون غبية أكثر مما كنت .

سوف أهتف لك وأضرب لك موعداً ، سوف أذهب الآن اليك ، أرفع سماعة الهاتف وأضعها على أذني ، لا أسمـع أي صوت ، أضغط بأصبعي على زره عبثـاً . لا صوت ، لا صدى ، يجرون حفرياتهم في شارعنا . وبعد أن يجمد كل ما في الغرفـة فترة طويلة ، أنا والحائط ، والصورة ، والهواء ، تقهقه الساعة شامتة ثلاث دقات .

أنياب رجل وحيد

(*) حوّل التلفزيون اللبناني هذه القصة إلى تمثيلية تلفزيونية من حلقتين إخراج الفنان انطوان غندور.

الموسيقى متمردة هوجاء كحفيف ثوب غجرية ترقص ، هنالك جدران من الدخان الملون بأضواء باهتة ، وحكايا باهتة .. هنالك رؤوس لرجال متعبين مغروسة في الفضاء الغائم للقبو ، وكؤوس ترتفع لحظة قبـل أن ينسكب النسيان منهـا في هوات بلا قرار .. هنالك قامات مزينـة لنساء ملونات تتأرجح بين المناضد والرؤوس كالدمى التي أتقن لفها وحشوها . وهنالك آهات مثيرة الأوجاع .. وكل ما في القبـو يلهث كصدر كبير ضاقت أنفاسه .. كصدره ، كصدر تلك المرأة التي تقف هناك تحت شلال الضوء الأحمر وتغني ، وتهز جسدها أكثر مما تغني ، وتتلوى وتهمهم وتئن أكثر مما تغني ، كأنها تريد أن تغني « بالإيحـاء » ، أو كأنها تريد أن تغني بشفتيها ، « وتعزف » بأردافها وكتفيها وظهرها .. وكان أي متفرج لم يثمل بعد يستطيع أن يكتشف أنها ماهرة في « العزف » أكثر منهـا في الغناء !

الجميع يتابعون « عزفها » بإعجاب ثمل . فالأغنية ، عـدا خشونة صوت صاحبتها ، قد حددت كلماتها .. أما « المعزوفة » فتترك الحريـة لكل منهم لينتظم الكلمات كما يشتهي ..

وكان هو ، بوجهه الهرم الوسيم ، وملامحه غامضة الحزن ، وشفتيه المطبقتين بحزم كأنما على سر خطير ، وعينيه المتعبتين كعيني أسد تعيس ، يرقبها من خلال أمواج الدخان ، يرقبها تهتز وتموج وتتأوه ، وشعرهـا

الطويل الأحمر المغسول بالدم الشهي يتماوت على كتفيها ، وكان هو أيضاً يرصف كلمات أغنيته « لمعزوفتها » .. « الليلة ، ستتمددين في مبخرة لم تعرف ثنايا جسدك دفء بخور كبخورها ، ووحشية جمر كجمرها .. الليلة » ..

— بسام ..

يسكب ما تبقى من كأسه في جوفه المتخم بالحزن والرعب . يلتفت ببلادة الى أحد أصدقائه الثلاثة الذين كانوا يقاسمونه منضدته :

— ماذا يا دريد ؟

— هذه كأسك الخامسة .. يكفي أرجوك ..

— هذه كأسي الأربعون .. وهذه المرأة الأربعون .. وهذا في وهذا جوفي .. وأنت هنا صديقي ولست طبيبي ..

— ولكن ..

— ولكن لا تتدخل وتفسد لي حياتي ..

ينسل منذر الى الحديث بلباقة المحامين :

— دعه يشرب يا دكتور دريد .. لم نرَ الأستاذ بسام منذ أعوام بعيدة ..

المغنية « العازفة » تكف عن الغناء وتنحني للتصفيق جيداً حتى تتيقن من أن السكارى جميعاً قد لمحوا أكبر قدر ممكن من صدرها ثم تنسحب. ينهض الرجل ذو العينين المتعبتين كعيني أسد تعيس ويتبعها دون أن يستأذن أصدقاءه . لا يبدو عليهم أي انزعاج أو أية دهشة . هذه حاله منذ أسابيع كلما خرجت فريسة ملونة تستجدي صياداً كان لها أمهر صياد وأغنى صياد .. وأكثرهم شرهاً ..

يهتف الدكتور دريد بطلاقة :

— ان صحته تسوء يوماً بعد يوم بطريقة غامضة لم أشهد لها مثيلاً ! يبدو أنه لن يعيش طويلاً ..

– من قال لك ذلك ؟

– أنا .. والآلـة التي خططت قلبه ! سأحدثكم بسر .. ان مخطط قلبه أغرب مخطط لقلب بشري .. يخيل إليّ أنه مصاب بجنون غامض .

يضحك هشام كأنما لنكتة تذكرها ويقول متلعثماً :

– لو قيل لي منذ أشهر أن الاستاذ بسام مصلوب في أعلى برج إيفل، أو أنه يعمل مهرجاً في سيرك ، أو أنه يغازل الآنسة « تمثال الحرية » لصدقت أكثر مما لو قيل لي انه قد يسهر معنا .. وأين ؟ هنا .. ومع من ؟ مع نينا وشارلوت وثريا .. وأخيراً ذات الشعر الأحمر ، أنوار !

يستنشق منذر لفافته بشفتيه ويهمس بينما تقترب رؤوس الرفاق من رأسه :

– الأغرب من ذلك .. لا .. من الأفضل أن أحفظ أسرار المهنة .

يهتفون بشراهة :

– ماذا ؟ قل .. كلنا أصدقاء .

يتجرع كأسه مرة واحدة :

– لقد زارني منذ اسبوع ، وكان حائراً في أمر ثروته التي ورثها عن أبيه ولم يبددها كما فعل أخوه .. وقد كتب وصيته !! وأنا كمحام، أحتفظ بها في خزائني .

يهتف أصدقاء بسام « الأعزاء » مرة واحدة :

– وماذا فيها ؟

وبينما كان منذر يحدث دريد وهشام عما في الوصية ، كان بسام يتأمل شعر أنوار الأحمر المغسول بالدم الشهي ويهمس :

– دعينا نخرج من هذا المكان الممل ..

– لا أستطيع الخروج الآن ..

يود لو يبقى أمامها .. يغرس نظراته في العاج الأبيض .. يتحسس

الجوع في مسامها بلسانه .. لكنه يشعر بعشرات من الانفجارات المبهمة في رأسه ، وفي صدره ، كأنه استنشق دخان الصالة كلها ، كأنه امتص الضجيج بأجمعه .. يقول لها بصوت متعب :

— سأخرج وأنتظرك في الدار .. لقد أعددت لك مفاجأة لم تحلمي بمثلها ..

— سألحق بك بعد ساعة واحدة ... لن أتأخر ..

يخرج من باب القبو فتعربد الأضواء الملونة على ملامحه الغامضة الحزن ، تضيء وتنطفىء وتتناوب بسرعة عجيبة ، الأحمر ، الأخضر ، الأزرق ، الأصفر .. كأنها شريط حياته يمر في ثوان على وجهه ... كأنها فصول عمره كله ... ليت شريطاً من الأضواء لا ينتهي يظل يسطع ، يخترع كل لحظة لوناً جديداً ، عمراً جديداً .. لماذا هذا الأصفر المرعب كأنياب رجل وحيد ... يكاد يصطدم بشابين يريدان الدخول الى الملهى ، ينحاز عن طريقهما معتذراً . كلماته المضمخة برائحة الخمرة تصعقهما . يجمدان في مكانهما حينما يتبينان وجه الرجل الحزين ، فلا تتحرك أقدامهما ، وبينما يتجاوزهما يلتفتان اليه متأملين قامته الفارعة تغيب في سيارته الفخمة .. ثم ينظر أحدهما الى الآخر كأنهما يريان أعجوبة .. كأن كلاً منهما يشك في أن صاحبه قد رأى ما رأى ..

— هل رأيته ؟

— أجل ! ولكنني لا أستطيع أن أصدق ..

— لعله رجل آخر يشبهه ..

— الاشاعات تملأ الصحف منذ أسابيع .. اشاعات مشابهة لما رأينا ... لا ريب في أنه قد جن ..

— هذا مؤسف .. انه من خيرة أساتذتنا .. هل قرأت كتابه الأخير ؟ نه يتحدث فيه عن ...

– كفى ، كفى .. أرجو ألاّ تبدأ بمحاضراتك الفلسفيــة وإلا كان مصيرك كمصير ... أستاذك !

الاستاذ بسام ينطلق في الشوارع التي خلت من المــارة بلا هدف .. سيارته حائرة كباخرة أضاءت منارتها .. لن يذهب الى داره قبل أنوار بزمن طويل. صار يخافها. يخاف الصوت الرهيب الذي يعرف أنه ينتظره هناك ، لينطلق من رأسه ، من وسادته ، من مقبض الباب ، من مكان ما .. ذلك المجهول الذي يلاحقه .. يخاطبه .. يحدثه ذلك الحديث الرهيب. يقنعه .. يقنعه بلا دليل .. شيء ما في أعماقه يؤمن به ويستجيب له .. لن ينام أبداً لئلا يراه .. لئلا يطل عليه .. ترى هل رأى الناس جميعاً قبل أن يموتوا مثلما رأى ؟ وهــل سمعوا مثلما سمع ؟ الرعب .. الرعب الحقيقي الذي لم يقرأ عنــه في كتاب ، لم يعرفه فيلسوف .. ولكنه .. منطقه يرفض هذا كله ! المنطق ؟! سنوات وسنوات عاشها كاهنــاً في هيكل المنطق .. ما أتفه المنطق أمام الحقيقة التي لا تحتاج الى براهين .. انه ببساطة لا يجرؤ عــلى أن يذهب ولن يعرض نفسه للبقاء في الظلام زمناً طويلاً .. يخاف أن ينام .. أنوار ستخفيه تحت جسدها .. تخدّره.. يتخذها درعاً له . لا . لن يذهب الآن . لن يغمض عينيـه ، سيعيش ولن يضيع أيامه ..

مأساته بدأت منذ أسابيع .. منذ اقتحم ذلك الصوت الرهيب عزلــة استاذ الفلسفة الكبير .. مأساته أنه يصدقه، ذلك الصوت المجهول الغامض كأحشاء غيمة ترقص فيها ملايين الأرواح الراكضة المعولة ..

هذه الشوارع التي ترقد تحت عجلات سيارته ، بوداعة قطط خبيثة، تتــأهب لمواء طويل مفجع .. (هــذا الليل الصامت المرعب والأيدي المزروعة في تربته السوداء التي تفوح منها رائحة بكاء نادب متقطع بشهيق مخيف .. الأيدي التي يحسها حوله خفية حــادة الأظافر كخناجر خلعت

أغمادها وتأهبت لرقصة الحرب والموت .. ذات ليلة ، سوف تنقض على عنقه وتدميه .. ذات ليلة ، سوف يصرخ طويلاً ولن يسمعه أحد) . الصوت العجيب لا يقول له هذا كله ، لكنه يقول ما فيه الكفاية .. يومان .. يومان وتنتهي المهزلة .. ليتها لا تنتهي أبداً .. أبداً .. الآن فقط يدرك أنها لم تكن مهزلة .. ولكنه كان يعيش المأساة بثياب مهرج! حياته شوهها ، بعثرها ، حتى الدموع التي كان يحسبها بلهاء كانت حقيقية ، والرغبات التي كان يحتقرها ، يظنها ضعفاً مخجلاً ، كانت أصلاً لا عرضاً ...

يدور من مكان الى آخر في المدينة على غير هدى .. لماذا هو وحده يمضي ويفارقها؟أنفاس الناس ما زالت حارة في الزوايا .. الأحاديث المملوءة بالحياة يكاد يسمعها أمام متاجر الباعة .. لماذا هو وحده يمضي ؟

ما زال يدور في الشوارع وحشاً جريحاً بلا مأوى .. يدور كأنه يود لو يتحسس كل رصيف ، كل عمود ، كل حجر ، كل وجه عابر.. كأنه يستجدي الالتصاق بها ، بشيء ما ، بأنوار ، بأي شيء ..

ما الفائدة ؟ يومان وتنتهي المأساة التي عاشها بثياب مهرج . السيارة تمر أمام دار يعرفها . دار أخيه . لا ريب في انه الآن يضم اليه امرأته السمينة وينام بينهما طفلهما الصغير يتلصلص عليهما من شق غطائه . يخنقه بؤس مرير .. انه خيمة بلا أوتاد تعبث الريح بها . بلا أولاد يلعبون أمامها . بلا امرأة تنفخ فيها رائحة الطعام والدفء . بلا أفق . أخوه . زوجة أخيه . دريد . هشام . منذر . طلابه . كتبه . فلاسفته . خدعوه. خدعوه جميعاً . بدأت الخديعة الكبرى يوم أرضعته أمه ، يوم علمته الأخذ ورسمت في عينيه الطفلتين نشوة العطاء المرتسمة في وجهها .. أي عطاء ؟ وأي أخذ ؟ اليوم يكتشف أن أحداً لم يمنحه شيئاً ما دام لا يستطيع أن يحمل معه شيئاً ! ما دام سيمضي وحيداً .. أية روابط تشده

الى الآخرين ؟ أي هذيان ما دام لا يملك إلا أن يواجه قدره عارياً .. وسوف يتفرجون . قد يحزنون ، وقد يبكون، ولكنهم سيكونون بعيدين كالمتفرجين الذين يشاهدون مسرحية ما .. يراقبونها ولا يمكنهم أبداً أن يعيشوها حقاً .. « اني أتمزق لأني أواجه نفسي ، لأن أقنعتي قد سقطت ولم أعد أملك إلا أن أحدق بعينين مذعورتين الى صدري .. الى الأنياب المرعبة التي تنمو فيه ولعاب الحقد والشهوة يكسوها كسم فتاك .. اني أكرههم .. ماذا أنا سوى هذي الأنياب الشرهة التي أود لو أغرسها في كل دار ، في كل امرأة ، في كل عابر سبيل لن يموت غداً ، أغرسها بوحشية لأتعلق بالأشياء ولا أمضي » ...

يحس انه يختنق . يمد يداً واهنة . يفتح نافذة السيارة . دفء لذيذ بكر ، دفء الأيام الأولى للربيع بعد شتاء همجي البرد . ذلك الدفء المخمور الذي يشع حياة ونزقاً ويهيج في النفوس أشواقاً مبهمة الى أفراح غامضة ، الى أراض بعيدة ، الى حب مجنون يسري في العروق لامرئياً كالنسغ .. وهو محروم من هذا كله .. لم يشعر بما فقد إلا بعد فوات الأوان .. ليته لم يفتح النافذة ..

أمام البناء الضخم يوقف سيارته . يهبط منها وينظر الى ساعته . يجب أن يسرع في إعداد كل شيء ...

عامل المصعد نائم . كلهم ينام بطمأنينة ، يحلمون جميعاً بالنجوم والشفاه الدافئة الممتلئة . أما هو فلماذا يلاحقه هذا الصوت ليحدثه عن أشياء رهيبة .. رهيبة كصرير أبواب مقابر أثرية لم تفتح منذ عصور ..

يدير المفتاح بسرعة في القفل ويدفع الباب . يضيء النور قبل أن يدخل . يسير خطوات في ممشى ضيق . يقف أمام غرفة الخدم . يقرعه بشيء من العصبية الخائفة . لحظات ثم يفتح الباب وتخرج خادم عجوز ما زال النوم يشعش في أهدابها المتكسرة ، تتبعها خادم أخرى في مقتبل العمر .

ـ هل أعددت كل شيء ؟
ـ نعم يا سيدي . وضعتها على الطاولة ذات العجلات .
ـ خذيها الى .. الى غرفة المكتبة .
ـ الى غرفة المكتبة ؟

سيطرت الدهشة على وجه الخادمة وطردت آثار النوم من عينيهـــا . ماذا دهاه ؟ مكتبته أشبـــه بالمعبد ، أشبه بطفلة مقدسة مدللة لا يسمح لانسان بالدخول اليها ، لا يسمح لها بتنظيفها إلا اذا ارتدت ثوبها الأبيض وتحركت فيها بهدوء خاشع خوفاً من أن تصيب كتاباً من الكتب قطرة ماء واحدة ..

ـ الى غرفة المكتبة ؟
ـ الى غرفة المكتبة .. أجل (يصرخ) الى غرفة المكتبة !

لقد لاحظت انه قـــد جن في الآونة الأخيرة ، لكنها لم تصدق ان الجنون سيبلغ به هذا الحد .

ـ أمرك يا سيدي ..
ـ ضعيها في الركن ولا تنسي زجاجات الشراب . وانقلي أنت وفتحية الفراش الصغير من غرفة نوم الضيوف الى المكتبة أيضاً . ضعيه في الوسط..
ـ السرير الصغير من غرفة نوم الضيوف الى المكتبة ؟
ـ السرير الصغير .. أجل (يصرخ) اسرعي ..

يدخل الى غرفته . يخلع ثيابه .. يرتدي « بيجامة » خفيفة و « روب دي شامبر » فوقها . يغسل وجهه . يحمل معه حزمة من الأشياء ويتجه نحو المكتبة ..

لم يكن للغرفة جدران . هنالك رفوف من الأرض حتى السقف مملوءة بالكتب ... هنالك جدران من الكتب .. جدران من الهـــذيان .. هنالك أفلاطون وسقراط وأرسطـــو وابيقور وزينون وكانت وديكارت ونيتشه

ودور تهايم و .. و .. وهنا كتبه .. جدران من الهذيان (ماذا اخترعنا أيها الزملاء البلهاء ؟ الصداقة ؟ الحب ؟ المجتمع ؟ الاخاء ؟ اليوتوبيا ؟ ماذا اخترعنا ؟ هذه الكلمات البلهاء كأسراب الجراد قد تغطي وجه البحر إذا انطلقت من رفوفي .. لكنها عجزت عن أن تنسج خيطاً واحداً يشدني حقاً الى إنسان ما ... الى شيء ما .. ما معنى كل ما كنت أفعله ما دمت الآن أحس بأن أسسه كلها قد نسفت .. نسفت حقاً .. اني أواجه نفسي من جديد ؟ من أنا حقاً ؟ الأنياب ، الأنياب الشرهة بالشهوة والانتقام ؟ فلاكن نفسي ما تبقى لي) .. العيون الصغيرة المرصوصة المستديرة تطل من الرفوف بفضول مذعور ..

يسمع نفسه يهذي . يخيفه صوته . يرى مئات العيون : ارسطو وأفلاطون وديكارت ونيتشه و ... و ... (أيها الزملاء الأعزاء .. ان مومساً تمارس الحياة هي خير منا جميعاً .. سترقبون الليلة مشهداً لم تحلموا بمثله ، ستندبون أيامكم التي ضاعت كما أندبها الآن ، لم يتبق لي سوى يومين فقط) !

السرير في منتصف الغرفة كما أمر ...

يفتح رزمة الأشياء التي جلبها معه ويخرج منها قطعة قماش كبيرة من المخمل الأسود الناعم . يغطي بها السرير حتى الأرض من جوانبه الأربعة .

النور الأبيض على مكتبه يضيء قوياً صافياً من أجل الحروف التي طالما سهر الليالي يفك طلاسمها وأسرارها . هذا النور الأبيض كان صديقه الوحيد ذا المكانة الكبيرة .. يتأمله بحقد .. يضع الى جانبه مصباحاً بشكل أفعى في فمها نور أحمر .. يشعل النور الأحمر والأبيض .. يتأمل ضيق المصباح الأبيض من زحف الأفعى واللعنة الحمراء بين أنيابها .. يخيل اليه ان صديقه القديم الأبيض ينظر اليه مؤنباً مستجدياً . بحقد شيطاني ينتزعه

عن المنضدة ويرمي به من النافذة .

تسقط الغرفة في شرك النور الأحمر الباهت. بسام يتأمل الأفعى بشوق.. أيتها الآلهة ، لماذا تأخرت ؟ لماذا لم ترشديني الى التفاحة منذ زمن بعيد؟

قرع خفيف على بابه .. يسرع .. ينتحه .. أنوار في ثوبها الضيّق كجلدها او أضيق قليلاً عند الخصر ، أنوار جاءت تحمل اليه شلال الدم والتفاح على كتفيها . تدخل .. تجمد وهي تتأمل الغرفــة ، الكتب التي تغطي الجدران ، الفراش الأسود من المخمــل ، الشراب في الركن ، والضوء الأحمر الوثني تنفثه الأفعى كالسم المنعش .. وقبل أن تلتفت اليه ودهشة جزعة تغطي ما لم يغطه الكحل من عينيها ، تحس بوجهه قريباً ، الى حد تعجز عن رؤيته بدقة .

(يا امرأة توقظ الحزن والحسرة والحنين ، يا عطر غابات مشحونة بالتأوه والنعاس ، أريدك على المخمل الأسود عارية كالفجــر ، لؤلؤة وحشيــة البياض وحشية النعومة ، وحشيــة الجوع والعطش ... فجوعي يا غريبة لن يشبعه إلا جوعك ، وعطشي لن يرتوي إلا من عطشك)...

وكانت يده الكبيرة تزحف وتغرق في شلال الدم والتفاح . أصابعــه القوية ترفع وجهها اليه .. يتأملها بعبادة حاقدة :

(أود لو أمتص من شفتيك حياتك كلها لتكون لي .. أنا .. أنا) ..

تتطلع الى عينيه متسائلة ضارعة ... وهنا ، هنا فقط يحدثها ككاهن صابىء ...

أنوار .. أريدك هنا على المخمل الأسود لؤلؤة وحشية البياض وحشية النعومة وحشية الجوع والعطش ... ولكن .. حذار من أن أنام .. حذار من أن تسمحي لي بالنوم ثانية واحدة .. وإلا ..

تقترب منه وقد غيرت تعابير وجهها بسرعة كما تغير الأفعى جلدها ــ كانت تهمس ، وكان أحلى ما في همسها انه غمغمة غير مفهومة .. أمسى

يعبد الكلمات التي لا تقال ، الكلمات الموج التي تتساقط في ضمير الليـل كدموع الأشجار المدارية ، غامضة ، ومن الأعماق ..

أنوار تتمدد على المخمل الأسود قارة ملذات من المخمل الأبيض .. وهو يجلس الى جانبها ، يدفن وجهه في رقبتها بخشوع حقيقي .. لا يريد الجلد ، لا يريد اللحم ، لا يريد التفاح والدم ، يريد أن يشم رائحة الحياة التي تفوح من مسامها حارة وديعة كأنفاس طفل .. يريد أن يشم الفصول الأربعة في عنقها ، يريد أن يشم الخلود ، لماذا عليه أن يمضي؟

يمد يده ويجذب المنضدة المتحركة الى جانب الفراش . يمـلأ لنفسه كأساً وتنهض أنوار قليلاً لتتنـاول كأسهـا .. رفوف الكتب التي تغطي الجدار وراءها تلتمع فجأة ، ويرى آلاف العيون الصغيرة المحشوة فيهـا تتأمله باستنكار وحقد ، يثور الدم في أوداجه ، أما زلتم أيهـا الفلاسفة مصرين على أسطورة الخداع المقدسة ؟ والطين أيها الحمقى ، والطين الذي يجوع ويشتهي ويحقد ، والطين الـذي هو أنا ، لمن ؟ للديدان ؟ وجسد هذه المرأة الخالدة لمن ؟ فلتحدق عيونكم المتكبرة الجائعة ! ستشاهدون بعد قليل حضارة الانسان المحمومة الحقيقية . سأكرمكم بأن تشهدوا هذا اللقاء المقدس .. وستبكي عيونـكم هذه لحظات العمر الذي ضاع .. وما تبقى من عمري .. لن يضيع !

يسكب النار في جوفه مرة واحدة ثم يضع كأسه جانبـاً بالقرب من كأسها .. يأخذها بين ذراعيه ، طرية هشة تحب أن تسحق ..

يضمها اليه امرأة توقظ الحزن والحسرة والحنين ... يغرق في دوامات حارة عجيبة .. يشم عطر غابات مشحونة بالنعاس والتأوه .. الزمن حفنة من الرمل تنزلق برعونة من بين أصابعه كلما شدد قبضته عليها .. الرمل ينزلق بسرعة لأنه سعيد .. ينزلق بسرعة .. بسرعـة .. والعيون المكدسة بين رفوف الكتب تستدير وتحمر .. ثم تدمع لأنه ليس لها جفون تسبلها كي لا ترى ..

والضوء الأحمر يرتعش ، يلتهب ، يترنّح .. يبدأ بالذوبان حينما تتسلل خيوط الفجر الأولى من النافذة .. وبسام يلهث متعباً ، مسترخياً ... ويتأمل وجهها المدفون في شلالات الدم والتفاح .. عيناها مغمضتان .. شفتاها شهيتان منهكتان تعبهما يثير النشاط في أعصابه .. أنفاسها تنتظم كأنها تكاد تنام .. واذا نامت وهجرته الى تلك الشواطىء المجهولة ، كيف يبقى وحده والشمس لما تطلع ؟ وهذي العيون الحاقدة بين رفوف الكتب، سوف تقفز حوله كأقزام مخيفة وتغمره ، وزجاج المصباح المكسور سوف يتوهج في عينيه وينغرس فيهما ، وذلك الصوت المرعب سوف ينطلق من كل مكان ليقول له كما في كل ليلة: ستموت .. انه خائف.. خائف .. أنفاسها انتظمت .. لقد نامت .. هربت منه وتركت جثتها .. والعيون بدأت تقفز من الرفوف ... سوف يصرخ ... لا .. سيوقظها...

يهزها بعنف ، بعنف انسان لم يقض الليل متعبداً قارة اللذة .. تفتح عينين بلهاوين وتسأله بضيق : ما بك يا بسام ؟

– أنوار .. أرجوك .. لا تنامي ...

– انني متعبة جداً ... اسمح لي بخمس دقائق ..

– لا .. لا أستطيع ..

تحدق الى وجهه بشيء من الرعب وكثير من الدهشة : ماذا بك ..

– آه .. عفواً .. لا شيء .

– دعني أذهب الآن ..

– لا .. لا تذهبي ... استريحي هنا ..

تتمدد من جديد بلهاء تثير حقده .. فلتبق ولو نامت .. إنه لن يكون وحيداً على الأقل .. سيظل يتأملها حتى يطلع الفجر .. كم يخاف الليل .. هذه الغابة من الشعر الأسود الكثيف التي تسدلها السماء على خد المدينة وفي طياتها أصوات مخيفة ، همسات القدر ..

النور الأحمر يكاد يذوب نهائيـاً . والفجر الرمادي يصبغ كل شيء ببريقه الفضي المتعب كبريق عينين مريضتين بالحب .. يحس بأنه متعب .. متعب .. أمواج شاطىء النوم تمتد إليه .. الى قدميه .. الى صـدره .. الى رأسه .. يكاد يستسلم للنوم يجرفه الى كهوفـه المخيفة حيث يسمع الصوت الرهيب كل ليلة ..

ينتفض مذعوراً .. لا .. لن ينام .. ينهض .. يستند الى النـافذة المرتفعة ويتأمل المدينة التي بدأت ملامحها تتبدى في النور الشاحب .. قطعان البيوت والأشجار والشوارع الهادئة .. هذه المدينة التي تتململ في أحضان دفء الربيع تشـبره .. يحسها شابة تتعرى لصدر السماء وتتمدد مستسلمة متطلعة الى أصابع الشمس التي ستجوس فيهـا بعد ساعات شبراً شبرا وحجراً حجراً .. اني أكرهك أيتها المدينة ... ماذا منحتني ؟ لقبـاً ؟ كرسياً في الجامعة ؟ سمعة طيبة ؟ مدارج أتحدث فيهـا ، وآذاناً تنصت لسخافاتي وسخافات الأولين والآخرين ؟

(ماذا منحتني ؟ كنت أتحدث عن الحياة ولم أكن أحيـا .. وكنت أفلسف الخلود وما كانت عطاياك لتخلدني أكثر مما تخلد صفير قطار يعبر إحدى محطاتك .. منحتني الشهرة والزبد ، خدرتني ، وظللت هكذا بلا امرأة ، بلا ولد ، فيلسوف اللاهوت ، وظللت وحيداً ، دودة تتطفل على فتات الحياة ، وخـادمتي الحقيرة كانت أكبر مني .. لقد صنعت ولداً ... شيئاً حياً) ..

الضياء بدأ يشع من المشهد المنبسط أمامه ، مشهد مدينة تأهبت لليقظة.. يحس بعنكبوت عملاقة تقبض على قلبه وتملأه بسم محزن عجيب ... لكن المدينة لا تبالي .. تزداد استسلاماً للصباح الشاب الذي أطل من حواشيها.. أيتها المدينة اللامبالية .. أنت ستستمرين هكذا مضيئة مزدهرة ، سيظـل الخريف يعري أشجارك، وسيظل الشتاء يمسح صدر شوارعك بيده الثلجية،

وستظل الضحكات والأحاديث والقبل المختلسة تضيء في زواياك المعتمة .. أما أنا فسأمضي ، والجمرة التي كنتها ، لم تترك وشماً على أي قلب ، عاشت في الرماد ، وماتت في الرماد ، وبنت في الرماد قصورها المهدمة كأعشاش النسور المستباحة ..

حقد حقيقي أسود يتفجر من عينيه .. يحس بحاجة مرعبة الى أن يحطم شيئاً .. يتمنى لو انه يتحول الى قدم شيطانية ضخمة يدوس بها هذه المدينة كما لو كانت مجموعة من النمل ، يدوسها ، ويسحقها مع التراب والصخور .. يلتفت وراءه ويراها ، أنوار ، قارة النسيان واللذة ، تغفو على المخمل الأسود بوداعة واطمئنان .. يكرهها .. يكره هذه الوداعة ، هذه الطمأنينة ، وهذا الاسترخاء .. يا امرأة رخوة كالهوام.. يا لحماً بلا نبض ، بلا انفعال .. أنت سوف تخلدين بعد ما أمضي .. أنت والغربان والضجيج .. وأنا سأمضي بعيداً أحمل أعماقي المعذبة .. لماذا يا ضحلة كالمستنقعات لا تتألمين ؟ كيف لم يهرم وجهك في ثانية لما رأى رعب وجهي ؟ أي عدل يمنحك الحياة ليغتصبها مني ؟ اني أكرهك ..

يتأملها وكأنه يود لو يغرس نظراته المسمومة في لحمها حتى يسيل الدم ويغسل قدميه .. تفتح عينيها فجأة .

حينما ترى نظراته المرعبة التي يصوبها نحوها .. تتقلص عضلات خديها في ذعر ، وتتلفت حولها كأنما لتتأكد أين هي .. آثار الليلة الماضية مبعثرة حول الفراش الأسود ، قبيح مشهد منضدة الطعام بعد الوليمة ، يثير الاشمئزاز والخجل . يبدو انها قد اعتادت المشهد ، وحتى النظرة في عيني الرجل الواقف أمامها اعتادت القرف المنسكب منها .. أما ذلك الحقد ، فهو ما تعجز عن فهمه .. تنهض وتلملم أشياءها المبعثرة ، وتحاول أن تصلح هيئتها بسرعة .. يظل يتأملها بشراسة منوم مغناطيسي وهو يقترب ، شيء في عينيه يخيفها . شيء أسود حاقد .. تهتف بلهفة : سأذهب ... لا

بجيب ، يسجن يدها في قبضة قوية كحديـــد السجن .. سأذهب .. لا بجيب .. تصرخ بذعر : دعني أرجوك .. لقد آلمتني ... يرتعد .. لماذا لا تموتين معي أيتها المرأة ، لماذا يا قارة اللذة والنسيان لا تشاركين انساناً تعيساً مصيره .. كوني شيئاً حقيقياً مرة واحدة على الأقـــل .. تصرخ رعباً وهي ترى الشياطين ترقص في مسامه : دعني ... دعني أذهب .. ينتفض فجأة وكأنما أيقظه صوتها المسعور ... يهذي : اذهبي أيتها البعوضة.. الآلهة يموتون .. وأنت والهوام والديدان ... تعيشين ...

يغرق في دوامة من التعب البائس بعد أن تمضي .. لا .. لن أنام .. لن أستسلم لليأس ، سأعيش ما تبقى من أيامي ثانية ثانية .. حمام دافىء كفيل بأن يعيد لي حيويتي .. يقرع باب غرفة الخدم .. تنهض العجوز وتفتح الباب نصف نائمة ..

– نعم يا سيدي ؟
– لماذا هذا النوم كله ؟ انهضي وجهزي الحمام لي ..
– أمرك ..

تدخل الى المطبخ وتخرج وقد حملت بيدها سلة صغيرة .

– قلت لك جهزي الحمام .. ماذا معك ؟
– سلة .. سأملأها بالحطب ...
– بالحطب ؟ ولماذا الحطب ؟
– لأجهز الحمام ..

يتحدث ببطء مجنون بارع الذكاء : لا .. هذه المرة لم يعــد دفء الحطب يجدي ... هذه المرة سأغتسل بما لم يخطر لمخلــوق .. اسمعي .. جهزي لي الحمام بالكتب ... خذي الرف الأول الى اليمين من المكتبــة واحرقي كتبه في موقد الحمام كتاباً كتابا .. وإذا لم يكف خــذي الثاني والثالث .

لا ريب في أن سيدها قد جن . لا دخل لها به ، ستفعل ما يقول ...

ـ أمرك سيدي ...

يتجه الى الشرفة ضاحكاً .. وهكذا سأستحم اليوم بديكارت، ونيتشه ، ولالو ، وغوستاف لوبون .. هذا رائع .. سيدركون جيداً بينما أنا أسفح الماء الدافيء انهم لا يصلحون إلا لهذا .. هذا الحمام العبقري يستحقه عبقري مثلي لن ينام،ولن يضيع ساعاته القليلة الباقية ... لم يتبق لي سوى يومين.. وليلة واحدة .

يخرج من حمامه بعد أكثر من ساعة نشيطاً مرحاً .. قبل أن يتجه الى غرفة نومه يقف أمام باب المكتبة ويتأمل الرفوف الثلاثة الفارغة،ويضحك بلؤم .. كان ألذ حمام عرفته في حياتي ..

يقف قليلاً أمام المرآة ويتحسس وجهه .. لا يستطيع أن يصدق أن الديدان سوف تغزو هذا الوجه وتخرج من بين هاتين الشفتين ومن فتحتي المنخرين، لن يصدق انها ستحشو هذا الشعر النظيف والحواجب ببيوضها وأقذارها .

لا .. هذا مستحيل ..

يسقط في مقعد مجاور ، ويضع رأسه بين كفيه وهو يتساءل : ماذا أفعل اليوم ؟ لماذا لا أذهب قليلاً الى الجامعة وأرى سلمى للمرة الأخيرة.. سوف أخدعها قليلاً وأتسلى بذلك .. سأخدع الجميع ... اني أحقد عليهم جميعاً ... القطيع اسطورة ، اني لا أنتمي الى أية جماعة .. اني وحيد ، وسأمضي وحيداً .. ولكن ، لماذا سلمى ؟ ان رفاه أكثر جمالاً ونضجاً، وقد قالت لي البارحة انها لا تحب خطيبها وانني أكثر رجولة .. الخدر يستولي عليه .. رأسه يسقط بين يديه ويروح في اغفاءة عميقة .. عميقة .. اغفاءة أشبه باليقظة منها بالنوم ...

احساسه بالأشياء مرهف وحاد وهو يرى انه يسير في صحراء واسعة

لا نهاية لرمالها .. لا نهاية لصمتها ولكآبتها ... الرمـال رمادية والسماء رمادية وليس فيها نجمة أو شمس أو قمر وليس في الرمـال آثار أقدام ، لا شيء سوى الرياح التي تعبث بكثبانها كأفاع لا مرئية : لا صوت سوى همهمات الرياح التي تشبه ندباً أبدياً على وتيرة واحدة ...

وفجأة يرى أمامه ساقين من الحجر ، ساقين هائلتين وبـالقرب منهما حطام تمثال رجل لم يبق منه إلا وجـه مهشم ويد ضخمة بالقرب من الوجه ذي التقطيبة المرعبة .. ويقرأ على قاعدة التمثال: « أنا اوزيماندياس، ملك الملوك ، أيها العظماء والصعاليك انظروا حولي ما بنيت ، انظروا الى آثاري التي ستخلدني أبداً ...

انه التمثال نفسه ، تمثال اوزيماندياس الـذي سبق له وقـرأ عنه في قصيدة لشيلي .. والصحراء نفسها .

ويتلفت حوله الى الصحراء الواسعـة ليرى ما بنى اوزيماندياس ملك الملوك ، ليرى آثاره التي تخلده .. لا شيء .. لا شيء سوى الرمال البله الممتدة من الأزل الى الأبد .. لا شيء سوى الصمت المجنون الذي يقطعه صفير الرياح النادبة .. وفجأة يحس بذعر رهيب .. يريد أن يركض ، لكن أقدامه مسمرة .. يريـد أن يصرخ ، أن يبكـي ، لا أحد ، لا انسان .. السماء خرساء ورمادية يصرخ بها : ما الحقيقة ؟ قولي يا سماء، يا قناع القدر الرمادي ...

وفجأة ، يسمع صوتاً كئيباً خشناً ، صوتاً رهيباً كصرير أبواب مقابر أثرية صدئة لم تفتح منذ عصور .. يقول الصوت : ستموت ... الموت هو الحقيقة الوحيدة ...

يعول منتحباً : متى .. متى ..

يقول الصوت : ستموت يوم ولد الربيع وفقاً لما هو في كتبك .. ستموت يوم ولد الربيع .. ستموت قريباً ...

ويتلفت حوله .. من أين ينبعث الصوت ؟ من أين ؟ ويدرك بقناعة تامة ان الصوت ينبعث من رأسه .. منه هو .. ويتمنى لو يمزق نفسه ، لكنه يظل يسمع الصوت مقنعاً بلا دليل ، مؤكداً بـلا برهان ، ويحس بكثافته ، ويحس انه يصدقه ويصدقه .. ويرى انـه يجلس عنـد قاعدة التمثال ، ويرى قاعدته تتحول الى ملايين الرفوف التي تضم ملايين العلوم والكتب ، وملايين العيون لفلاسفة وأدباء وعلماء مضوا .. ويرى وشمـاً حاداً عميقاً كوشم من جمر كتبت به كلمات اوزيماندياس : « انظـروا حولي الى ما بنيت ، انظروا الى آثاري التي ستخلدني أبـداً » . وحول التمثال لا شيء سوى الرياح تصفر ،لا شيء سوى الرمال المفتتة الهشة ... وينفجر باكياً بحرقة ، بحرقة أجيال من الرجال الذين ماتوا وتحولوا الى حرف أبله،الى جمرة مطفأة على قاعدة التمثال ... وينتحب ... والصوت يخرج من عظامه ومن أعماقه ، ويرتعد كأنه هو نفسه تحول الى ذبذبات ذلك الصوت الجبار الرهيب ...

يستيقظ . يجيل عينيه في الغرفة . كل شيء ما زال في مكانه ، كما كان لما خرج من الحمام واستسلم لمقعده . لقـد هرب من ذلك الصوت الليل بطوله ، يبدو ان لا مفر .. حتى في ساعات الفجر الأولى ، حتى لو أشرقت الشمس من وسادته لظل يرى الحلم نفسه ولظل الصوت الرهيب هو هو والصحراء هي هي ..

بشراهة ، يتأمل خيوط الشمس الأولى التي تتحسس جانب غرفته ، بأسى حقيقي يحس بالدفء يسري في عروقه ... (لقد نضجت الشمس، وبعد غد يولد الربيع وأموت أنا حينما ينتشر الشبان والشابات في الدروب يقطفون الربيع عن الأرصفة المشمسة) ... يغمره حقد حقيقي ، يستحيل صدره الى بئر مهجـورة ، تنمو فيهـا أنيـاب مرعبـة يكسوهـا لعاب الحقد والشهوة كسم فتاك .. يكرههم ، يكرههم جميعاً أولئك السعداء الذين لن يموتوا ما داموا لا يعرفون متى يموتون ... (اني أكرههم ،

ماذا أنا سوى هذه الأنياب الشرهة التي سأغرسها فيهم جميعاً قبل أن أمضي) ..

يقفز من مقعده ملسوعاً . يرتدي ثيابه بسرعة . يخرج دون أن يتناول طعامه . من جديد تضيع السيارة في الدروب التي ضاعت فيها منذ ساعات في الليل . لماذا يتسكع ؟ انه يعرف هذه المرة الى أين يذهب .. وهو يخاف أن يذهب .

(سأرى المكان الذي سيلقون بي فيه بعد ان أموت . المقبرة) .. يكره المقبرة .. عبثاً يحاول إقناع نفسه بأن الموت أمر عادي ، مجرد انتقال من دار فخمة الى دار حقيرة ، مجرد ترحال من مدينة فيها حي غني يقطنه الأغنياء وحي فقير يقطنه الفقراء الى مدينة لا أحياء فيها ، بيوتها متشابهة ولا شيء فيها سوى البيوت ، لا مدارس ولا معابد ولا ملاه ، حتى ولا شوارع لأن أهلها لا يتزاورون .

الى المقبرة يصل . يدخل بسرعة ويتأمل كل ما حوله .. عشرات القبور الخانعة وقد انبسطت تحت سماء الربيع الصافية ، عشرات الأكوام من التراب الأصفر ، عشرات الظهور المحنية كأنما خوفاً من سوط جبار ظالم .. يسير بين القبور ، يراها كما لم يرها من قبل ، ينظر اليها بطريقة جديدة ، تخيفه الحشائش التي تنبت على القبور ، تخيفه ، يخيل اليه أنها شبكة من الأعصاب والأوعية الدموية للرجل المدفون تحت القبر ، شبكة جديدة خضراء بسيطة .. يقف أمام أحد القبور يتأمله .. دون وعي منه تمتد يده الى الحشائش التي تنبت من أعلى القبر ، يقطف ورقة ويخيل اليه انه يسمع أنين المدفون في الأسفل ... آه ... ترى ما لون الحشائش التي ستنبت غداً على قبره ؟ سوداء .. ستكون سوداء حتماً ، كحقده ، كأنيابه ، كعبثه ..

يقترب منه رجل رث الثياب يحمل في يده رفشاً ، ويتجول بين

القبور بلا مبالاة عجيبة ، كأنه راعٍ عجيب لقطيع يفترسه الطاعون .. انه الحفار ، فليعد منذ الآن قبره .. يقترب منه .. صباح الخير كلمة سخيفة هنا .. هذه المدينة لا تعرف المجاملات .. يقول له بلا مقدمات: أريد قبراً ..

— حاضر ، من رخام أم تراب ؟ ما طول الشاهدة ؟

يغيظه جواب الحفار العادي .. لماذا لم يسأله لمن القبر ؟ لماذا لم يبد دهشته من أن يشتري هو ، الشاب الفتى ، قبراً ؟ لماذا لم يقل له ما زلت صغيراً ولم يحن وقت شرائك قبراً ؟

— أريده من رخام .. وله شاهدة مرتفعة .

يتأمله الحفار بازدراء وهو يقول : ثلاثمائة ليرة .

يتذكر يوم اشترى بيته الذي يقطنه .. كيف سأل عن (الشوفاج) وعن الكاراج وعن المصعد و ... و ... هذه المرة لن يقول شيئاً ... لا يدري ما قد يحتاجه فيما بعد ، يوم يموت ..

يدفع جزءاً من المبلغ للحفار : أريده غداً مساء .. يجب أن يكون جاهزاً بعد غد .

يهز الحفار برأسه موافقاً واللامبالاة ما زالت تغمر ملامحه . يتركه الاستاذ بسام ويسير بين القبور راجعاً الى سيارته وضيق عجيب يطبق على عنقه ... عيناه تتأملان التراب في حسرة ، التراب الميت ، التراب الرخو .. غداً يكون من بعضه .

يخرج من المقبرة ويعدو نحو سيارته . ينطلق بها نحو الجامعة .. يمر ببيت أخيه . سوف يصعد قليلاً . سيدعو أخاه وزوجته الى العشاء غداً ، يجب أن يكونوا جميعاً حوله حينما يموت ..

يصعد السلم بسرعة . يقرع الباب . لحظات . تفتح الباب امرأة سمينة جميلة الوجه ما زالت في ثياب النوم ..

تقول والنعاس ما زال يتمطى في ملامحها : أهلاً وسهلاً تفضل ...

يدخل وراءها الى غرفة الضيوف .. يختلس نظرة الى الباب المفتوح بينما هي تقول : « لحظة واحدة ، سأوقظ أخاك .. لقد تأخرنا في سهرة البارحة .. »

نظراته المختلسة الى الباب المفتوح تتحول الى وجهها ، الى رقبتها التي تبدو له حارة مكتنزة ، الى الانحدار الشهي لصدرها تحت الثوب ... يقترب منها والأنياب الشرهة في صدره تصطك وترتجف ولعاب الشهوة الحاقدة يسيل منها .. يقبلها من عنقها .. من منبت شعرها الذي يرفعه نحو قمة رأسها بيده القوية .. تهمس مرتبكة : « أرجوك ، لا داعي لذلك الآن ، سأجيء اليك كالعادة بعد أن يذهب الى عمله ... لن أتأخر عليك » .. ما يكاد يفلت شعرها من بين يديه ، ويزيح وجهه عن عنقها حتى يرى أخاه واقفاً أمام الباب وفي عينيه نظرة لا تعبر عن أي شيء .. تراه رآنا ؟ لا يدري .. وجهه كوجه حفار القبور ، لا تعبير فيه ولا إحساس ..

— أهلاً وسهلاً بسام ... كيف صحتك ؟

— خير من قبل ..

— لقد حدثني الدكتور دريد عنك وقال لي إن قلبك متعب جداً غريب النبض ..

— لا أهمية لذلك ..

يهتف أخوه في ضيق يحاول كتمانه : « لكنك زرت الاستاذ منذر منذ أيام » ..

يقاطعه بسام غاضباً : « هل قال لك شيئاً » ؟

— لا .. لا .. أبداً ... كل ما قاله لي هو أنك زرته ، وكنت متعباً .. لا .. لم يقل أي شيء آخر ...

- حسناً .. جئت أدعوك الى العشاء أنت ونائلة ... غداً في الثامنـة أرجو أن تكونا عندي .. هنالك مفاجأة كبيرة لكما ..

- آه .. شكراً .. شكراً لك ...

يتقدم نحو الباب ليخرج .. تهتف نائلة بطريقة رسمية أمام زوجها : « لحظة واحدة يا أستاذ بسام ، فنجان قهوة فقط » .

زوجها يتأملها وابتسامة (شيلوكية) ترتسم على شفتيه .. يهتف بسام بشيء من الخشونـة دون أن ينظر اليها : « لا .. شكراً .. يجب أن أصل إلى الجامعة ... لديّ درس » .

بينما هو يخرج يكاد يتعثر بابن أخيه الذي ركض من إحدى الغرف.. (هذا الطفل الرائع أحقد عليه أيضاً .. هذه البلهاء جاءت به .. وأخي الحقير منحها إياه .. وأنا .. أنا وحدي عجزت عن الأخذ والعطاء) ..

يصفق الباب وراءه بشراسة .

حينما يدخل من باب الجامعة ويرى الطلاب في الحديقة كالشتول السعيدة الممتلئة أملاً بالحياة والنمو ، يحس من جديـد بالأنياب التي في صدره تكاد تنغرس فيه وتصب فيه سمها .. يوقف سيارته ويهبط منها متجهاً نحو الدرج ... تلتقي نظراته بنظرات إحدى طالباته ، سلمى . سلمى بشعرها الكستنائي الشهي كقرص من شهد .. سلمى وعيناها العذبتان كبركتين من عسل .. هذه الفتاة العذبة الهادئة لا يدري لماذا يرتجف كلما رآها .. كلما حدثته .. انه لا يحس بالارتياح اليها .. لا يحس بالارتياح الى صوتهـا الساحر دائماً ، وحديثهـا القاسي ... لا يرتاح الى هدوئها وصمودها .. ووجهها الذي يظل ساحراً غامضاً رغم الكلمات الجارحة التي كان يوجهها لها دوماً .. رغم كلمات الحب التي تغمره بها هي .. لا يدري لماذا يحس انها وحدها تخدعه بينما هو يخدع الناس جميعاً .. هي وحدها تعذبه كالموت، بينما هو يعذب الناس جميعاً ..

تهز رأسها وتحييه بينما هو يتجه نحو مكتبه ومنه الى غرفة الأساتذة ..

يرحب به زملاؤه بشيء من الفتور ، سوف يصطنعون البكاء جميعاً حين يسمعون بوفاته وبالمبلغ الذي تركه لكل منهم في وصيته .. لن يدركوا انه يخدعهم .. يشتري دموعهم وتمثيلهم .. يدفع لهم لقاء مسرحياتهم الحقيرة .. يريد أن يبدوا جميعاً حقيرين يوم يموت .

يحين موعد الدرس . ينهض الأساتذة الى صفوفهم ... لا يشعر برغبة في الدخول الى الصف .. لا يهمه ما قد يقولون .. هذا يومه الأخير ..

وحيد في غرفة الأساتذة . الباب يقرع . سلمى تدخل . تواجهه بنظراتها التي يخيل اليه انها غامضة مداهنة ... يتأمل ساقيها بإعجاب حقيقي ... ما اجملها .. لماذا لا يرتاح اليها ؟

– ماذا تريدين ؟

– اني بشرق اليك ... لماذا تتصرف هكذا ؟

لا يدري لماذا يشعر انها تسخر منه ، يهتف بقسوة : هذا شأني ...

– أين سهرت البارحة ؟

– لا دخل لك بذلك ..

– لا دخل لي بذلك لو لم تقسم لي منذ أسابيع على الوفاء .. لو لم تطالبني بأن أخلص لك أنا أيضاً ..

– وهل أنت مخلصة ؟

– أجل . أنا لا أكذب ..

تغيظه هذه الصراحة في الحديث .. انها تفوت عليه لذة خداعه لها .. انها ليست انثى كاللواتي عرفهن .. انها لا تشبه أنوار ، نائلة ، رفاه ، انها انثى من نوع جديد ، لم يعد لديه وقت ليعرفها ، ليت القدر يمهله ليبدأ معها تجربة طريفة من نوع جديد ..

لماذا لا يقول لها كما قال لهن جميعاً : « اسمعي يا سلمى .. سأموت غداً مساء .. وقد أوصيت لك بمبلغ كبير » ..

تشهق ، يرتسم الحزن في ملامحها ، يا للمخادعة الصغيرة !

ـ لقد أوصيت لك بمبلغ كبير .

تصرخ به : انك حقير ... لم أكن أبيعك حبي .. أبداً لا أريد منك ثمناً ..

هذه الممثلة ، تصر على ارتداء قناعها واستمرار المهزلة حتى النهاية .. سيحرجها : إذن قولي ، ماذا كنت تريدين ؟

ـ كنت أتمنى أن تحبني حقاً .. ان أكون زوجتك وان أمنحك طفلاً ..

ـ سلمى ، هل تحبينني حقاً ؟

ـ أجل ! أحبك ..

ـ تعالي إليّ غداً مساء في السابعة .. تعالي في السابعة .

ـ سأجيء ، وأرجو أن ينتهي هذا البؤس كله .

تتركه وتمضي .. تخلف له رائحتها ، وعذوبة برك العسل في عينيها .. انه يحبها ويكرهها بطريقة ما .. يعود الى داره منهكاً .. يأكل بشره ولذة .. يأوي الى فراشه .. سينام ما دامت الشمس تتسكع في السماء ، سينام ما دام النهار مسيطراً لأنه لم يحدث أن رأى الحلم أبداً أكثر من مرة واحدة في اليوم الواحد .. قبل أن يغمض عينيه ، يرفع السماعة ويتحسس الأرقام بأصابعه ويدير أحد الأرقام ..

ـ ألو .. من المتكلم ؟

ـ رفاه ؟

ـ أجل ! من ؟

ـ أنا بسام ..

– بسام ، أهلاً ، صوتك متغير .. هل أنت مريض ؟
لا ريب في انها تسمع صوت اصطكاك الأنياب الجائعة في صدره .. يجب أن يكون أكثر حذراً .. يقول لها في لهجة جهد أن تكون رقيقة : أجل أنا مريض .. مريض بالشوق اليك يا حبيبتي ..
تضحك بطريقـــة يقشعر لها بدنه اشمئزازاً وشهوة ، ثم تهمس كما تفح الأفعى : أنا على استعداد لأن أشفيك ..
– متى ، متى يا حبيبتي ؟
– بعد ثلاثة أيام يرحل خطيبي ، وسأقضي معك ليلة رحيله .. سوف تنسيني إياه .. أليس كذلك يا حبيبي ؟
– طبعاً .. طبعاً .. ولكن بعـــد ثلاثة أيام ، مستحيل .. أريد أن تحضري الليلة .. ألم أقل لك انني سأموت غداً مساء ؟
تضحك بطريقة تثير حقده .. هذه التافهة ، كيف تضحك ؟ لكنه على أية حال يفضل أن يقضي ما تبقى له من الوقت معها لا مع سلمى .. انها تريحه .. يجب أن يختطفها من خطيبها بينما هي تتعذب دون أن تقوى على مقاومة سحره .
– رفاه ، حبيبتي ، أريدك الليلة ، الليلة قبل أن تسقط الشمس وراء أسوار الأفق ، الليلة تعالي ودعينا نشهد المغيب معاً من الشرفة ..
– ولكن ...
– أرجوك ، قبل المغيب ..
– حاضر ، لن أتأخر .. من أجلك ...
– شكراً يا حبيبتي .... سأقول للخادمة بأن تتركك تدخلين الى غرفة نومي حينما تحضرين ..
– سأوقظك بطريقة لم تحلم بها .. وداعاً ..
تغلق سماعة الهاتف .. آه يا امرأة ، يا قارة النسيان واللذة والخبث.. كم أعبدك !

قبل أن يغمض عينيه لينام يتصل بالدكتور دريد ويدعوه الى العشاء ويرجوه أن يبلغ « هشام » و « منذر » ذلك .. يغلق عينيه لينام ، ولكن ...

لماذا ينام ؟ غداً يرحل الى براري النوم الأبدي ، حيث الرياح مخدرة والصمت الرمادي يسود العالم .. غداً في ذلك القبر الصغير يسجن وراء أسوار تلك المدينة العجيبة ، وقد تمر سلمى تتأبط ذراع رجل ما ويضحكان وهو يسمعها ولا يقوى على ان يقول شيئاً .

تهدهده أفكاره الحزينة كأنها انشودة بحارة استسلموا لضياعهم في البحر .. موجة النوم تختطفه عن شطآن اليقظة ، تغمره بالنسيان ، يرحل معها الى حيث لا يدري ..

يفتح عينيه ، رفاه تقف أمام فراشه ، وفي عينيها الخضراوين تألق عجيب كالبرق .. لا ، لم يكن صوتها الذي أيقظه ، كانت نظراتها .. نظراتها التي اخترقت جسده الممدد وعينيه المغمضتين . رفاه فراشة عجيبة الجمال ، وأضواء ساعة الغروب تصبغ وجهها ورقبتها بحمرة مثيرة .. يمتلىء قلبه بجزع جائع .. ما أحلى العالم والمرأة في الغروب .. لماذا لم يكتشف هذا من قبل ؟

ينهض من فراشه بنشاط . يضمها اليه ويتحسسها .. هذه القامة الطويلة بتناسقها العجيب ، لم يكن ليصدق من قبل ان المرأة تشبه تماثيلها الرائعة الى هذا الحد .. تشده من يده الى الشرفة العالية ، الى حيث يقف ليتأمل الغروب يفجر ينابيع الدم في الشوارع والسطوح والنوافذ ويصبغ المدينة بها .. الشمس تختفي وقد خلفت وراءها بقعاً من الغيوم الدامية التي تبهت شيئاً فشيئاً .. والظلمة تحل شيئاً فشيئاً .. ورفاه ، يحسها تنزلق من بين ذراعيه شيئاً فشيئاً .. كأن هاتفاً ما يناديه وهو لا يملك إلا أن يلبي النداء.. كأن عليه أن يلتحق بالشمس الغاربة ، يستحيل الى نقطة ملتهبة في موكبها

الرائع ، ثم يهوي على تلة ما ذرة من رماد ... يشد رفاه اليه بقسوة ، يريد أن يتمسك بالمباهج التي تحملها .

— رفاه .. أحبك ، أتمنى أن تظلي معي ..

يسمع صوته وهو يقول هذا .. لماذا يكذب ؟ يعرف انه لا يحبها .. لكنه يحب أن يخدعها ، يحب أن تحبه ، أن تتخلى عن خطيبهـا الشاب الرائع ، من أجله هو الكهل الميت ..

— وأنا أيضاً احبك .. لقد تخليت عن خطيبي الشاب الذي كان يحبني من أجلك ..

تقترب منه بوجهها الملتهب كطبق من جمر .. يقبلها ، يود لو يسرق من شفتيها عمرها كله .

— هل ستتزوجني ؟

— أجل .. أعدك بذلك ..

— متى ؟ قل لي متى ؟

— أعدك بأن أعلن خطبتنا بعد غد !

— بعد غد !! تعني يوم السبت .

— أجل ! أعدك بذلك ...

على الأريكة تتمدد وتجيل عينيها في الشرفة التي ستكون لها ذات يوم.. تبدو سعيدة . وهو أيضاً سعيد .. سعيد بخداعه لها .. غداً يموت، وبعد غد ستكتشف انها فقدته ، صارت أرملة روحية ، سوف تبكيـه طويلاً كأوفى زوجة . ولن تعود الى خطيبها أبداً ..

لقد ترك بصماته عليها ، آثار أنيابه الصفر ..

سعيد .. يضمها اليه .. هي أيضاً امرأة توقظ الحزن والحسرة والحنين.. يغرق معها في دوامات حارة عجيبة .. يشم عطر الغابات المشحونة بالنعاس والتأوه ، ويحس الزمن حفنة من الرمل تنزلق برعونة من بين أصابعه ...

الرمل ينزلق بسرعة .. ينزلق بسرعة .. بسرعة ..

... يكاد الليل ينتصف . تكتشف رفاه ذلك وهي تنظر الى ساعتـه ذات العقارب التي تضيء في الظلام

– أرجوك ، دعني أذهب .. لقد تأخرت ..

صوتها لاهث ومنعش .. لا يقول لها شيئاً .. يتركهـا تنهض كحلم هارب .. يتركها تلملم أشياءها في الظلمة ... تقترب منه بوجهها قبل أن تمضي لتقبله .. يغمره اشمئزاز حاقد .. يمد يده ليضيء النور .

– لا .. لا .. أرجوك لا تشعل الضوء .

لا يجيب . بقسوة يضغط على المفتاح تحت الوسادة .. يتفجر الضياء الفاجر أسهماً قاسية تسمرها أمامه .. يتأمل شعرها المشعث في النـور .. لم يعد مصففاً جميلاً ، ولا يبدو طبيعياً ، فعبث يديه بعد يدي الحلاق جعل الشعر يبدو منفوشاً في بعض الجهات وهامداً سخيفاً في بعضها الآخر.. والوجه وقد ساحت عليه الأصباغ فتلطخ الخدان بالكحل الاسود والأخضر وضاعت حدود الشفاه التي كانت متقنة الرسم .. وبدت له نظراتها زائغة كأنما أدركت بغريزتها الأنثوية وطأة حكمه عليها وتحامله ... كم يكره الأشياء المنتهية ، الموائد التي شبع منها ، ما أقبحها .. يتمنى لـو تختفي بسرعة وتحمل تشويهها ، هو الذي شوهها ، كان يعرف مـا سيرى . أضاء النور .. لا جدوى من أيّ شيء .. لا مفر ..

تهمس بصوت ذليل مرتاع : أما زلت عند وعدك .. هـل سنعلن خطبتنا يوم السبت ؟

بكثير من السخرية السوداوية يجيب : طبعـاً .. طبعاً يا حبيبتي .. تعالي يوم السبت مساء ، وسوف نسهر معاً .. وسأزور أمك وأخبرها .. تمضي ..

يخرج الى الشرفة ويعب من نسيم الليل كأنما ليطهر صدره من أنفاسها..

حتّى خداعه لها لم يعد يجدي .. لا مفر .. لا جدوى من أي شيء ..

باستسلام منكسر مريع يعود الى فراشه .. باستسلام مفجع يدفن وجهه تحت الوسادة ويبكي .. ويبكي كما لم يعو ذئب جائع ، كما لم تنح ريح بين أذرع طاحونة محطمة .. ويبكي .. سوف يظل يبكي حتّى ينام .. سوف يستسلم للحلم .. للشبح .. للموت .. لقد تعب .. حتّى أنيابه تعبت، سئمت ، يبكي ... ويبكي .. لم تعد الجدران تسمع نحيبه .. من جديد يروح في الاغفاءة العميقة التّي يعرف ... التّي هي أشبه باليقظة منها بالحلم .. من جديد يرى انه يسير في تلك الصحراء الواسعة التّي لا نهاية لرمالها وكآبتها .. من جديد يرى الساقين الحجريتين الماثلتين . الكتابة البلهاء الفخور على قاعدة التمثال .. من جديد يسمع الصوت الكئيب الخشن ، الصوت الرهيب كصرير أبواب مقابر أثرية صدئة لم تفتح منذ عصور .. يقول الصوت : غداً أول الربيع .. غداً تموت .. غداً تموت!

من جديد يحس الصوت مقنعاً بلا دليل ، مؤكداً بلا برهان، ويسقط تحت وطأة كثافته ، ويصدقه .. يصدقه .

يستيقظ والدموع ما زالت تغطي وجهه .. لقد دنت النهاية .. فليستسلم للزوبعة ، للدوامة الرهيبة التّي تشده الى أسفل .. الى أسفل ..

... لما فتح عينيه مرة ثانية وجد ان الليل قد انقضى والشمس تغمر الغرفة .. يحس بأسف عميق عميق لأنه غفا.. لقد انقضت ليلته الأخيرة ، لن يرى بعد البارحة الليل الجميل يصبغ المدينة بالصمت الأسود المرهف ويعدّ الأشياء كلها للحب والحب .. لن يرى النجوم أبداً .. ليت القبر شفاف .. ليته لا يموت ...

ما الفائدة ؟ ماذا سوى أن يكسره ما دام سيمضي ويخلف النجوم والليل للآخرين ؟ ماذا سوى أن يحقد ؟ ماذا سوى أن يغرس أنيابه ليعلق بشيء ولا يمضي ...

ينادي الخادمة . يريد حماماً كحمام البارحة .. سيستحم ببقية فلاسفته.. هذا هو الشيء الوحيد الذي يصلحون له .. ليته اكتشف ذلك من قبل!

... يخرج من الحمام بعد مدة وجيزة . لن يضيـــع الوقت ، الوقت ثمين . يفاجأ بامرأة تروح وتجيء في البهو بعصبية . يذهب الى غرفته عن طريق الممشى دون أن تشعر به ويرتدي ثيابه ثم يخرج اليها ..

ــ نائلة .. ماذا بك يا نائلة ؟

ــ لا شيء .. صباح الخير ..

ــ لا .. يبدو عليك الضيق .. هل قال لك أخي شيئاً ؟ هل رآنا البارحة ؟

ــ لا أعتقد .. لم يقل لي شيئاً من هذا ..

ــ اذن ، ما الذي يضايقك ؟ تكلمي ...

ــ سمعت زوجي يحدث الدكتور دريـــد .. اني قلقة .. هـــل أنت مريض حقاً ؟

ــ لا .. أبداً .. أنا بخير .

تنفجر باكية فجأة .. تقول وجسدها الضخم يهتز : لن أخفي عليك شيئاً من عذابي .. أحقاً انك ستموت الليلة ؟

ــ من قال لك ذلك ؟

ــ أخوك يعرف ذلك منذ أسبوع .. خبرنا منذر بأنك كتبت وصيتك وقلت له ذلك ..

ــ الوغد .. لم يكتم السر .

ــ لا .. لم يكن وغداً .. كان يرجو من أخيك أن يهتم بأمرك ..

ــ وهل خبركما بما في وصيتي ؟

تتلعثم : لا ... لم يفعل .. لم يقل شيئاً ..

تقترب منـــه بحنان مفتعل : يا حبيبي المسكين .. سأموت غماً اذا انتحرت ..

– ومن قال لك اني سأنتحر ؟
– ماذا ؟ لن تنتحر ؟ اذن كيف تموت ؟
– ستعرفين فيما بعد ..
– لقد تأخرت . سأذهب ، سأحدثك دائماً بما يدور وراءك أيها الحبيب الطيب .. ثق انني وحدي المرأة الوفية لك .. أنا وحدي وفية لك..

تمضي . يستريح منها ، من الكابوس اللزج .. سوف يذهب ويتفقد قبره .. لا .. لن يفعل .. أمامه الأبد كله ليتفقده . سيعد العدة للوليمة. وسيلملم أشياءه ويحضرها للورثة .. والليلة ، حينما يتجمعون حول المائدة، لن يدروا انهم يتناولون لحمه طعاماً ، يتقاسمونه ، هو سيوزع عليهم نفسه بيده ... سيمنحهم لحمه وثروته وأشياءه .. وفجأة سيداهمه الموت.. ترى ما الموت ؟ أهو امرأة جميلة شعرها شلال من التفاح والدم ، تفتح الباب بهدوء نسمة فلا يراها سواه، ويخرج معها الى الشارع متأبطاً ذراعها حتى إذا ما ضمتها الظلمة جرته صامتاً منوماً الى المقبرة وغرست أنيابها الحادة في صدره ؟ ما الموت ؟ أهو لحن ناعم يتسلل الى صدره ويمتزج مع أنفاسه في إيقاع موحد عذب ، ثم يمضي ومعه أنفاسه التي عادت الى اللحن الأساسي الذي شردت عنه حيناً ؟ أم هو .. آه ... كفاه تفكيراً هكذا .. بعد ساعات يكتشف كل شيء ..

حفنة الرمل تنزلق من بين أصابعه بسرعة .. بسرعة ... انه لا يريد للزمن أن يمضي .. يخاف .. يخاف الغروب الأخير الذي سيراه .. لا يعتقد ان لربى الموت شمساً أو فجراً أو زمناً ... هنالك الصمت، أبد الصمت، خلود الصمت ، إيقاع الصمت الرمادي ..

الساعة السابعة .. والباب يقرع ! نسي أن سلمى ستجيء ..

يفتح الباب لها .. داره لم تعد تستقبل إلا النساء ، تدخل ، يتأمل وجهها النظيف الذي لم يشوهه خط ملون هجين ... تضايقه هذه الفتاة المتماسكة التي لا يستطيع أن ينقدها .. يرى انها ترتجف ..

ـ هل تشعرين بالبرد؟

لا أدري ماذا حدث .. بعد هذه الأيام المشمسة يبدو ان الشتاء قد صمم على العودة ..

يمضي الى النافذة فتتدفق نسمات باردة جداً .. انه الشتاء يلفظ أنفاسه.. يا للحسرة ..

ـ سلمى ، أريد أن أقول لك شيئاً ..

بلهفة تهتف بركتا العسل في وجهها : ماذا .. قل .. أرجوك ..

سيعذبها .. هذه المخادعة ، سيعذبها ..

ـ سأموت الليلة ..

ماذا ؟

ـ سأموت الليلة !

تتقبض ملامحها فجأة كطائر يعذب . تتماسك . تنهض بصمت وتتجه نحو الباب لتخرج .

ـ سلمى ..

ـ هذا يكفي .. لو كنت تحبني حقاً لما تحدثت عن الموت بهذه اللهجة ، ولأحببت الحياة من أجلي ..

.. تغمره حيرة ممزقة .. يحس انه بدأ يضيع .. نائلة بكت لما عرفت .. رفاه ستجن وتبكي .. هذه البلهاء المخادعة ، لماذا لا تقول له شيئاً ؟ لماذا لا تمنح أنيابه فريسة من نفسها ؟

***

الباب يقرع . جاء ضيوف وليمة الموت .. يحس انه متعب، بصعوبة ينهض . ينهض لاستقبالهم . قلبه ينبض بسرعة .. بسرعة كقلب الفراشات التي لا تعيش أكثر من يوم واحد ..

ها هو أخوه يدخل جامد الملامح كحفار القبور ، ونائلة ، بعينيها

الحزينتين المتطلعتين الى مشهد مفجع كأنها جاءت تشهد صلبه . يتبادلون عبارات المجاملة العادية . يحس انهما يراقبانه بفضول ، يتأملان مشيته وحركاته يتوقعان أن يسقط فجأة على السجادة ميتاً . انه واثق من انه سيموت الليلة ، بعد ساعات ، ولكنه لا يعرف كيف ؟ وقلبه ينبض بعنف عجيب ، يترقب المجهول المخيف ، المجهول الكريه ..

الباب يقرع من جديد .. يدخل دريد ومنذر وهشام . اكتملت حلقة ضيوف الميت . يثرثرون وهو يضيع عنهم ، يحس بالليل إحساساً مكثفاً لم يعرفه من قبل ، الليل والريح التي تعوي كأنهما الطبيعة تعاني مخاضاً مؤلماً قبل أن تلد الربيع ، وبعد ساعات يولد الربيع ويموت هو ! انه متعب ، خائف ، قلق ، حاقد ، يحس بضربات قلبه تزداد سرعة كأنها دورات محرك طائرة فقد ربانها القدرة على السيطرة عليها ...

يلحظ انهم جميعاً يراقبونه ، نظراتهم الفضولية تطالبه بمشهد مفجع.. لقد تأهبوا لذلك ، كجلادين متعطشين للدماء ، يلاحقونه بأسئلتهم عن صحته وقوته .. فليعترف انه لا يدري كيف سيموت ولكنه متعب متعب..

ــ الطعام جاهز .. تفضلوا ..

ينهضون نحو غرفة الطعام الفاخرة. يلتفون حول المائدة يأكلون بشراهة. يحس بأسنانهم وكأنها تنغرس في لحمه هو ، يثرثرون ويضحكون : هل يمكن أن يكونوا لا مبالين الى هذا الحد ، أم انهم لم يعودوا يصدقونه ؟ الساعات تمضي والليل يكاد ينتصف وخدر عجيب بدأ ينسل الى مفاصله وعضلاته .. ما زالوا يشربون ويضحكون ، وهو يحس بانفصال حاد تدريجي عنهم كأنه شجرة في قمة جبل عار . يبدون لعينيه كالأشباح ، لم يعد المجهول مخيفاً ، لم يعد كريهاً ، وداعة حقيقية غامضة تغمره والأنياب الجائعة في صدره بدأت تتساقط كأوراق الخريف وتترك قلباً عارياً للسان الليل والريح يلعقه ويحن عليه .. يحس بحاجة الى شيء ما ،

الى وجود جديد،وجوههم تتراقص أمامه ، نائلة بعينيها الحزينتين وصوتها البائس إذ قالت له « ثق انني وحدي المرأة الوفية لك »... وأخوه بوجهه الجامد المترقب ، أخوه المسكين الذي خدعه طويـلاً دون أن يدري ، ورفاه ، وجه رفاه المسكينة مشعث الشعر ساعة أضاء النور فجأة إذ نهضت من فراشه ، وتعمـد أن يجرحها ويشوهها ، ورفاه تموء «لقد تخليت عن خطيبي الشاب الذي كان يعبدني من أجلك » ..

ودريد الحريص على صحته ، المرتاع من أجل ضربات قلبه العجيبة .. ومنذر .. وهشام ... وأنوار ... و ..... وتختلط الوجوه ، تتزاحـم ، تتلاحق ، يحس بندم عجيب يعتصر فؤاده ، يود لو يصرخ . لقد أسأت اليهم جميعاً ، لماذا يا أنيابي ، يا أنيـاب الرجـل الوحيد .. أريد أن أموت الآن ، أريد ، تراني أستريح .. تتسلل من النافذة سحابة قوس قزحية الألوان .. يستنشقها ، يمتصها ، يسمعها ، ينفجر شيء في صدره ويحس انهم يحملونه الى غرفته ويسمع من بعيد ، يسمع من بعيد نحيب زوجة أخيه .. الطبيبون ، سوف يجدون بعض العزاء حينما يقرأون وصيتي ، حينما يخبرهم منذر بأنني تركت لهم جميعاً ثروتي .. آه . أختنق .

الريح ، الريح تحملني معها الى بعيد ، أنا غيمة ، أنا نسمـة ، أنا ذرة رمل في الصحراء الشاسعة ، الصحراء الرمادية حيث لا شيء سوى الريح الساخرة من الكلمات المحفورة في الصخر .. كلمات الانسان الفخور..

ومن بعيد يسمع زعيق نائلة :لقد مات .. مات ... إذاً فقد مات !.. شيء كثيف كالصمت العميق العميق الذي يطوي في جموده معرفة الوجود كله يغلفه .. إذاً فقد مت ! يسمع بكاء أخيه ، بكاء رفاه،بكاء أنوار، بكاء منذر ودريد . بكاء .. بكاء .. كم سبب لهم من آلام ...

اذاً فقد مت ! تلفحه الريح ساخرة العويل .. اذاً هكـذا يكون الموت .. رحلة الى صحراء الحقيقة ، الحقيقة الأولى هي الرمل والريح ... ينفجر محرك الطائرة المسعور في صدره ويصمت كل شيء ..

ينقضي بعض الوقت ...

يفتح عينيه . يرى انه في غرفته .. الأشياء ما زالت شاحبة والوجوه المنكبة على سريره ليست واضحة بعد .. هنالك حديد بارد ملصق على صدره .. سماعة طبيب ... الوجه القريب منه هو وجه دريد . يستطيع أن يميزه . آه هذه نائلة بعينيها المحمرتين . هذا أخوه ، منذر ..

انهم جميعاً حوله . ولكنه مات ، هنالك ذلك الصمت العميق الكثيف في أغواره يقول له انه مات .. ولكن هل يعي الميت وجود الآخرين ؟ الريح قد صمتت ، والفجر بدأ يطل من نافذة غرفته .. يسمع دريد يهتف : الحمد لله ، لقد انقضت النوبة وعاد قلبه يخفق بشكل طبيعي .

بسام يسمعه ، ولكن صوته يبدو غريباً بعيداً ، أشبه بزخارف ملونة سخيفة التمويه على جدار وحشي غريب مريع يراه بينما هو يسمع دريد يتكلم ! هنالك شريط من الكلمات المضيئة يتحرك بسرعة على جبين دريد، والكلمات المضيئة الصامتة التي تتحرك بسرعة كالأفاعي تقول : أيها الثور ، لم أشهد في حياتي كلها مريضاً مثلك .. لماذا لم تمت وترحني ؟ لو انك تدري كم أنا بحاجة الى نقودك ..

بسام يظل صامتاً جامداً يتساءل برعب .. تراني مت أم لا ؟ أهذا هو الموت أم انني نجوت حقاً ؟ الحمد لله على سلامتك يا حبيبي ، يا أخي ..

ويحس بسام بأنه لم يعد يبالي بما يسمع .. لقد اتجهت عيناه بحركة عفوية إلى جبين أخيه حيث رأى أيضاً شريطاً من الكلمات المضيئة يتحرك بسرعة ، والكلمات المضيئة الصامتة تقول :

لعنة الله عليك ، لماذا لم تمت ، لقد تحملتك طويلاً ... لقد سكت على علاقتك بزوجتي يا كلب بانتظار اللحظة التي نحصل فيها على هذه الدار الرائعة ...

يحس بسام انه يبتلع ريقه بصعوبة .. ويدرك انه أضحى قادراً على قراءة ما يجول في ذهن الآخرين .. انه لم يمت ولكنه اكتسب هذه الملكة العجيبة ...

نائلة تئن : سلامته .. سلامته ...

وينظر الى جبينها مستعطفاً لكنه يقرأ شلالاً من الكلمات المضيئة المذهلة: لماذا يا رب ابتليتني به وبأخيه .. لماذا لا يموتان وأستريح من سماجتهما ؟ منذ الصباح وأنا خائفة من أن لا يموت ..

يد وحشية القسوة تعتصر قلبه وتملأه بحزن حقيقي عميق ...

إذن فقد كان أخوه يعرف وكان يصمت ويتجاهل من أجل ماله ؟! اذن كانت نائلة تخدعه، تتمنى موته ، وموت زوجها أيضاً ؟! اذن كان دريد يتندر بمرضه وينتظر ساعة الخلاص منه ... وهو،العملاق البائس ، كان يظن انه يخدعهم ، كان يتعذب لأنه يحقد عليهم ، كان يظن انه يلوث أشياءهم ، يلعب بمقدراتهم ، واذا بخداعهم أعمق من خداعه ، واذا بألاعيبه طفلة بريئة أمام غشهم ودنسهم .. واذا بأنيابه التى كان يظنها حادة قاطعة ، ناعمة ساذجة أمام شرهم .. كان يظن انه قد نجا ، لكنه الآن يؤمن بأنه قد مات ، مات حقاً ما دام أضحى قادراً على أن يعرف ما يدور بخلد الآخرين ، مات الميتة الأبدية التي لا راحة منها ، كل منهم طعنة خنجر ، انها ميتة بروميثيوس الذي سرق النار المقدسة ، نار المعرفة فعاقبته الآلهة بأن صلبته عارياً على جبل وجعلت النسور تأكل أبداً من كبده الذي يتجدد كلما تمزق في أبدية عذاب عجيبة ..

وهو قد مات .. مات حقاً ما دام في كل كلمة كأس من السم .. لقد صدق الصوت الغامض .. لقد مات ..

« الموت الحقيقي هو أن أعرف الآخرين .. يا رعبي مما تبقى » ...

يدمدم منذر ببلاهة : « يبدو انه قد تحسن ، من الغريب انه عرف

سلفاً انه سيصاب بمثل هذه النوبة .. » لكن بسام لا يبالي بسماع كلماته، انه يقرأ شريط الكلمات المضيئة المتراكضة على جبينه : سنصاب جميعاً بنوبة مماثلة لأننا صرفنا ما في الجيب منتظرين ما في الوصية .. ليتني لم أخبرهم بما فيها لأنني لن أنجو من لومهم الى الأبد ..

لم يعد يستطيع أن يتحمل ... هذه الحقارات التي تجول في رؤوسهم، وهذا الازدواج الفظيع،هذا الانفصال الكامل بين ما يقولون وما يصنعون، أهذا ما علمتهم المدينة إياه ؟

يسمع انه يصرخ: أخرجوا جميعاً .. أخرجوا من وجهي. يا لحقارتكم .. يخرجون ويظل وحيداً . ينادي الخادمة . تدخل مرتعدة .

ـ أريد كأساً من الماء ..

ـ أمرك سيدي ..

يقرأ على جبينها العجوز « مسكين سيدي بسام ، لو كانت له امرأة وولد لما تعذب هكذا وجن » ..

يشرب كأس الماء ويسقط في نوم طويل متعب ..

يستيقظ والشمس تكنس الغرفة بشعرها الأشقر . ينهض ليذهب الى .. الى حيث لا يدري ... سوف يكتشف العالم من جديد ... لا أحد يدري أية قوة سحرية عجيبة يحمل .. لا أحد يدري أي سر رهيب يطوي بين جوانحه ، أي عذاب أبدي يلازمه وسيلازمه ما دام يدري ويعرف كل شيء .

يركب سيارته وينطلق بها . يقف في إحدى محطات البنزين ليملأ خزانها . حينما يعيد له العامل ما تبقى من المال يقرأ على جبينه انه خدعه وان البنزين مغشوش. ليته لا يعرف ... « أية ميتة هذه التي أحياها ».. الى أين سوف يذهب ؟ الى الجامعة،الى حيث زملاؤه المتعلمون الراقون.. لا ريب في أن أفكارهم تنطبق على أقوالهم ... يدخل الى جانب أحد زملائه ، يحدثه متلطفاً : صباح الخير أستاذ عباس ..

– صباح النور يا فيلسوفنا الكبير ... كيف صحتك ؟

على جبينه تتزلق الكلمات الحقيقيـــة المضيئة « صباح الزفت يا أكبر سخيف ومغرور .. ومع ذلك يـــدفعون لك ساعات إضافية أكثر منـــا جميعاً » ..

يحس بأنه عـــاجز عن متابعة أي حوار معه .. يصرخ فيه فجأة : أيها الحقير المتلون ، أهكذا تجيب ؟

ويلتفت بقية الاساتذة اليهما بدهشة .. لقد سمعوا جميعاً جواب الاستاذ عباس ولم يكن فيه ما يغضب بل على العكس كان مفعمـــاً باللطف .. انهم لا يدرون ان هذا اللطف المفتعل بالذات هو ما أثار الاستاذ بسام..

يتهامسون : لا يسمعهم لكنه يقرأ على جبينهم :

ألم نقل لـكم منذ أيام أن المسكين قد جن ؟

سوف يعتبرونه جميعاً مجنوناً ما دام صادقاً ومخلصاً .. كان عليه أن يشكر الاستاذ عباس وان يريق على خداعه خداعاً ليكون فيلسوفاً وذكياً.. فليحاول ، ان عليه أن يتظاهر بالجهل كي يقوى على التعايش معهم ... يقول بانكسار مفجع : آسف يا أستاذ عباس ، لم أكن لأوجـــه الكلام لك ، هنالك مشكلة فلسفية كنت أتمم مناقشتها في ذهني ..

يجيب الاستاذ عباس في مداهنة عجيبة : لا بأس ، لا بأس ، نحن اخوان على أية حال ..

ويحاول بسام أن يدير وجهه عنه كي لا يرى الحقيقة لكنه لا يستطيع، هنالك قوة همجية تشد عينيـــه وحواسه الى الجبين ، الى حيث الكلمات المضيئة : الحقيقة ... ويرى هناك الوجه الحقيقي لزميلـه ، يرى الكلمات العفوية قبل أن تغيرها غابة المدينة ، يرى أن عباس يقـــول في نفسه : لو لم تكن رئيس القسم لصفعتك على خدك المحمر كالثور .. ولكن ، علينا أن نتحمل جنونك أطول فترة ممكنة ..

ورغم انه وطد العزم على أن لا يجيب ، يجد نفسه يصرخ في وجهه بحدة : أنت المجنون ، أنتم المجانين جميعاً ما دمتم ترتدون وجوهكم على وجهها المعاكس ! هل تريدون أن تروا كيف تبـدو لعيني ؟ انظروا !

ينهض الاستاذ بسام ويخلع معطفه ثم يرتديه ووجهه الى الداخل وبطانته الى الخارج ! ويذهل الاساتذة ثم ينفجرون ضاحكين ويقرأ على جبينهم: مجنون .. يجب طرده ... لكنه لا يبالي ، يصرخ:انـكم ترتدون وجوهكم وشخصياتـكم كما أرتدي الآن معطفي ! ليتـكم تفهمون كم أنتم مضحكون بالنسبة لي ! السم في أعماقـكم ، وكلمات المداهنة تلطخ شفاهكم كالأصباغ على وجه مومس ...

يخرج من غرفة الأساتذة وهو يحمل معه حقيبته التي اعتاد أن يحملها دون أن يفتحها منذ أسابيع .. يتبعه الآذن ويحاول أن يحملها عنه وهـو يقول : اتركها عنك يا سيدي سوف أحملها أنا حتى السيارة .. ويكاد يعطيه اياها ويشكره حينما يقرأ على جبينه وجهه الحقيقي ، يقرأ : « لم تدفع لي أجرة الشاي والقهوة منـذ ثلاثة أشهر ، أخشى ان تكون قـد جننت حقاً وأبقى أنا بلا نقود » .. وبسرعة ، بألم حقيقي، يدفع له ثمن تملقه ويتركه يحمل الحقيبة له ... ولكن ، بينما السيارة تبتعد عن الجامعة، يرمي بالحقيبة من النافذه بقرف !

الى أين ؟ الى أين يذهب ؟ أين يستطيع أن يجد مخلوقاً واحداً يقول ما يفكر به ؟ أين يجد مخلوقاً لم يسقط في غابـة الأقنعة ويظـل فخوراً بأشيائه مباهياً بأحاسيسه الحقيقية مهما كانت مستهجنة ! أين ؟

يوقف سيارته في أحد الشوارع ويسير وكأنه يرى المدينة للمرة الأولى، كأنه يرى البشر للمرة الأولى .. حيوانات عجيبة تسعى ، كل فرد فيها مزدوج .. المخازن الكبيرة قـد فتحت أبوابهـا والأرصفة مزدحمة .. الى جانبه رجل تتأبط ذراعه امرأة شابـة يبدو انهـا زوجته . عيناه تتأملان

عابرة وعلى جبينه تضيء كلمات الأعماق : ليتني لم أكن متزوجاً ... على الناصية يقف رجلان يتصافحان في مودة ... انه لا يسمع ما يقولان لكنه يقرأ على جبين أحدهما : كلما غيرت طريقي التقيت بك ... لو كنت تدري انني زورت الأوراق باسمك .. يلحق بـه متسول مشوه الساق في مشيته عرج . تزعق السيارات ، المتسول يلاحقه .. ينفحه بعض النقود والمتسول يقول : الله يطيل في عمرك .. وعلى جبينه يقرأ : حينما أتأنق أمشي خيراً منك ..

لا يدري كم من الساعات انقضت وهو ما زال يتسكع ... يكتشف الوجه الحقيقي للناس بعد ما غسلت لعنته وجوههم وجعلته يراهم على حقيقتهم.. ويشعر بالخوف ... بخوف حقيقي وحشي ينبع في أعماقه .. انه طفل ، طفل من كوكب آخر فقد القدرة نهائياً على التعايش مع مدينـة غريبة تضحك شفاه أهلها بينما أعماقهم تدمى ، وتغتسل ملامحهم بالدموع ، بينما تفور مستنقعات المداهنة فيها ...

هؤلاء العابرون ، لم ير انساناً واحداً يقول ما هو في أعماقه ... لم ير انساناً واحداً يرتسم على جبينه ما تنطق به شفتاه ... الى أين يذهب وهو الانسان الوحيد الميت الذي يسعى ؟ لقد صدق الصوت العجيب ! وهو اليوم قد اكتشف الموت، معنى الموت هو أن نعرف الآخرين ونظل نحيا معهم ! الموت هو وجوه من حولنا حينما تسقط الأقنعة عنها .. فليذهب،فليذهب الى المقبرة،الى حيث لا تناقض بين الأقوال والأفكار... وليتحدث الى الرجل الذي يبيع القبور ، لا ريب في انه شيء آخر ...

حينما يصل الى المقبرة يحس بطمأنينة عجيبة تغمره ، أولئك الأحياء حقاً ، الذين يمارسون في قبورهم حياتهم الحقيقية، ويتخلون عن عشرات الشخصيات التي كان عليهم أن يتبنوها في تعايشهم مع الآخرين،أما هنا، فكل منهم يمارس فرديته بالطريقة التي تروق له .. وفي الليل،تغتبط السماء لأغانيهم المتنافرة التي تنضم في لحن واحد ميزته الوحيـدة انه صادق ..

هنا يظل الملحد يشتم الى الأبد ، دون أن يضطر لنشر الكتب عن الإيمان.
وهنا يظل المحب ينشد أغانيه الى الأبد ، دون أن يخشى الخيانة أو الغدر أو الاهانة ... فليكن حفار القبور صديقه .. يقترب منه ويقول لـــه : « صباح الخير » .. هذه المرة يحس أن مكان « صباح الخير » الحقيقي هو في هذا المكان .

– أهلاً .. صباح الخير .

ويقرأ على جبينه : ألم تمت بعد؟ ظننت أن الورثة سيدفعون ما تبقى !

يتماسك ويحاول أن يتمم حديثه ...

– هل أنهيت بناء القبر ؟

هذه المرة يتحدث عن القبر بلهفة ، لم يعد شيئاً مرعبـــاً وهو الذي صار يرى في كل جبين هوة تنشق وقبراً ينتظر ، وهو الذي صار يحس كل كلمة من كلمات الآخرين صخرة وصخوراً تتدفق عليه لتمطره .

– نعم ، لقد انتهى القبر ..

ويقرأ على جبينه كلمات الأعماق ، وأنت أكبر غبي في رعيتي ويبدو انك لم تدفن أحداً من قبل لأنك لا تعرف الثمن الحقيقي للقبور ...

يستحسن ألا يتبادل الحديث مع أي انسان وإلا فإنه سيرتكب جريمة ما ذات يوم ...

المقبرة مكان قذر ما دام فيها انسان حي واحد يداهن ويخاتل ليحيا.. صارت الحياة شيئاً قذراً في هذه المدينة ...

يتخبط في طريقه الى سيارته والى داره ...

الغروب ، وهو على الشرفة، وينابيع الدم التي يفجرها الغروب تلطخ الشوارع والمباني والأفق ...

« وصلت ضيفتك »

هكذا تقول الخادمة التي دخلت دون أن يشعر بوقع خطاها .. يقرأ

على جبينها : ليتك تخرج الليلة وتسهر ، فابني مريض وأريد أن أتسلل لأراه .

يقول لها : دعيها تدخل ، واذهبي وزوري ابنك ! تشهق مرتاعة وتخرج ...

بعد لحظات تقف رفاه أمامه جميلة كما هي أبداً .. نسي أنها ستجيء لتستوفيه وعده ! وعده لها بالزواج ، يحسها بعيدة نائية كالشبح أمامه ، ينظر اليها دون أن يقول شيئاً ، ويقرأ في صمتها انها تقول : ما زلت أتمنى خطيبي ولكنني أحب بيتك الفاخر .. ولا أريد أن تعمى عيناي كما حدث لأمي الخياطة ...

تظل صامتة ، ويظل صامتاً منكمشاً قاسي التعابير الى حد يرعبها ... تحس أنه تغير ، لم يعد ينظر الى عينيها الى شعرها وجسدها ، انه ينظر الى البعيد البعيد وتعابير وجهه تقول انه يفهم كل شيء ... لا تبدو عليها الدهشة حينما ينطق بكلمات مقتضبة تتعبه : مع السلامة ...

لا تحاول أن تناقش . أن تتساءل . يبدو أن جوه المكهرب يحطم أعصابها . تخرج وكأنها هاربة من مشهد جثة !

يتنهد بارتياح بائس! بارتياح جثة أعفيت من التشويه ومن التمثيل فيها!

لقد انتهيت ! اني منخور من الداخل ... أنتصب كعمود مجوف في الصحراء بدأت الثقوب تنفتح فيه كالقروح وبدأت ريح الليالي المرعبة تتسلل اليه وتهوم بين الثقوب وتصفر وتصفر ألحان الموت المرعبة.. الموت الحقيقي الأصفر ... الموت الوحشي على رماح الكلمات المداهنة ، الموت الأعزل في المدينة العجوز كساحرة شريرة ...

سلمى ... وأنيابي ما زالت منغرسة فيك ... كلهم كانت أنيابهم أطول من أنيابي ... كلهم عرفتهم على حقيقتهم .. أما أنت، أيتها اللغز العسلي ، أيتها المتحدية الهوجاء ، ما أنت ؟

السبت ! نسيت ان اليوم السبت يوم وفاتي ... ستجيئين سأطلب

منك ذلك .. وسوف أعاقبك بأن أتزوج منك ... لقد كنت أمهرهم في الخداع ..

ولكن ، ما معنى ان أختصك وحدك بحقدي رغم انني قد فرغت من الآخرين وتجاوزت هياكلهم المهترئة ؟ هل كنت شيئاً حقيقياً في وجودي حتى انني أحس انك ما زلت حولي رغم انني مضيت الى براري الحقيقة، براري الموت ! يهتف اليها وبصوته الحازم يطلب منها أن تأتي .

الباب يقرع بعد نصف ساعة .. هذه المرة يسمعه .. يركض نحوه بجرأة كاهن قرر أن يكشف الستار عن آلهته ليتحقق منها، من حقيقتها ...

تدخل سلمى ... أبداً لم تخلف موعدها رغم كل ما فعله !

وترتمي نظراته على وجهها، تنطرح انطراحاً على الملامح النظيفة والتعبير المتماسك ..

— أهلاً سلمى ..

— أهلاً بك ، شكراً ...

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضيئة : أهلاً بك ، شكراً ...

— سلمى أريد أن أتحدث معك للمرة الأولى ، بصراحة ..

— اني دائماً أتحدث بصراحة ...

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضيئة : اني دائماً أتحدث بصراحة !

— سلمى ، هل تحبينني حقاً ؟

— أجل ! أحبك لكنني غاضبة منك، وسوف أبتعد عنك نهائياً لأنساك ، من أجل كرامتي ..

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضيئة : أجل ! أحبك لكنني غاضبة منك ، وسوف أبتعد عنك نهائياً لأنساك .. من أجل كرامتي ...

— سلمى ... قولي ، الى أي حد تحبينني ؟

— بلا حدود ، بلا زمن ، كالبحر والأزل ...

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضيئة : بلا حدود ، بلا زمن ، كالبحر والأزل ...

— هل تستطيعين الحياة معي وحدي ... في غابة ، في كهف ، في أرضي الضائعة بين الصنوبر ؟

— أجل ! أنت عمري وعالمي ، ومع آدم مثلك أرضى بأن أكون حواء الأولى ...

على جبينها يقرأ شريط الكلمات المضيئة : هي كلماتها نفسها ... سلمى الرائعة التي كان يخافها لأنها لا تتملق ولا تداهن ولا تحدثه باللغة التي كان قد اعتاد على فهمها .

— سلمى ، سنرحل الليلة ! ما رأيك ؟

— الآن ... اذا استطعت أن أغفر لك ...

هذه المرة لم ينظر الى جبينها لم يعد بحاجة الى أن يمارس موته معها لأنه واثق منها ... معها وحدها يستطيع أن يحيا ... بعيداً ... حيث الريح والمطر والثلوج ... وهمسات المدى السحيق التي لم يستطع الإنسان أن يعلمها الكذب بعد .

وسلمى ...

غجرية بلا مرفأ

(*) هذه القصة تُرجمت إلى الألمانية والإنكليزية والإيطالية.

وجهك ، يا حكاية تشرد جديدة تفوح منها رائحة المطر في شواطىء عذبة الحزن والدفء .

وجهك ، يا قلق الخضرة في عينيك ، يا شهوات روما في الملامح الصارمة .. حتام تلاحقني لعنة معبودة ؟ حتام ترتسم في عتمة غرفتي وأنا اطفىء النور لأنام .. فأسمع الضحكة العجيبة التي تفوح منها رائحة لفافاتك.. وأتوق الى أن انحلل ، أفنى في الرائحة ضبابة منسية ..

الليل قد انتصف . الفيلم الهزلي في التلفزيون قد انتهى ، وقهقهات جدي البريئة الجذلى واخوتي الأطفال قد هدأت ..

تأملته طويلاً وهو يضحك بينهم بوجهه ذي التعابير الساذجة كوجوههم رغم أفاعي الزمن التي خلفت فيه آثار زحفها البطيء المرير . أحسست انني احبه حقاً ، أتمنى لو أرسم على شفتيه ابتسامة فرح دفنت منذ أعوام مع جثة ابنته الوحيدة : أمي ..

وكان هو أيضاً يتأمل جلستي الى جانب خطيبي كمال والرضى يقطر من عينيه ، ويختلس النظرات الى يدي الميتة بين يديه ليتأكد من انها ما زالت هناك ، وأنا أترك يدي في يد كمال من أجل الابتسامة التي قررت أن أرسمها في الوجه الجليل .. بأن ثمن ..

جدي المتعب المهدود لم يشك يوماً، ولم يتململ يوماً مني ومن اخوتي

منذ غادرنا أبي الى بلاد بعيدة مع امرأة قيل انها فاتنة وخلف أمي المريضة لتموت سريعاً ..

ورغم ضيقه من ولعي بالغناء لم يحاول أن يقف في طريقي يوماً .. ولكنه عجز عن إخفاء فرحته يوم جاءنا كمال المهندس الثري يحمل الي قلبه وثروته ..

تراني أقوى على الاستمرار ؟ أرتدي له قناع الفتاة البريئة .. تراني أقوى على الاستمرار من أجل ابتسامة جدي ؟

ووجهك يا حكاية تشرد محببة يشدني اليه ، يشد الغجرية التائهة في أعماقي .. وضحكتك التي أسمع فيها رنين مرساة ذهبية سعيدة لأنها وجدت مرفأها ..

صدرك يا مرفأي كيف أهرب ؟ والليل يسود ، وجدي واخوتي قد انسحبوا الى غرفهم ، وخطيبي قد جلا ، وأقنعتي قد اهترأت وأنا في فراشي أعاني عذاب كل ليلة ..

أدس بوجهي تحت الوسادة أبحث عن النوم لعله مختبىء تحت الوسادة فلا أجد سوى وجهك قريباً نائياً ..

وأفتح عيني أتأمل الستائر لعل النوم مختبىء تحت الستائر .. وأبحث وراءها .. وراء اللوحة .. وراء منضدة الزينة .. أزيح بأهدابي شعاع النور الخافت الذي ينسل من النافذة الصغيرة ليلقي على الأشياء ، وعلى وجهك فوق الأشياء كلها ظلاً من العتب المرير ..

ويبدأ زحف الوجوه في غرفتي . ويبدأ حشد الصور التي يفجرها الأرق في رأسي .. وعشرات الحكايا .. وعشرات المشاهد .. ووجهك رغم كل شيء .. أحسك تستيقظ في عروقي كما تستيقظ كل ليلة ، تتحد بي ، تنطبع ابتساماتك على شفتي وأنفث من فمي دخان لفافاتك ..

الوجوه .. الوجوه الناقمة الغاضبة ، المستعطفة .. والوجوه التي تصرخ

والتي لم تتعلم كيف تصرخ بعد ... يا لهذيان الأرق ، يا لمدينته المرعبة التي تستيقظ في رأسي .. يا لعمري المتعب الممزق نتفاً من ذكريات .. ودوامات ..

ولا أملك إلا أن أتذكر .. وأتذكر ...

كان البحر مثقلاً بأشعة الشمس ، كان يرتمي كسولاً عاري التوهج والملل .. وكنت أنيساً وحنوناً حتى نسيت انه لقائي الأول بك .. أنت الملحن الكبير الذي يبكي المدينة ويضحكها .. وأنا الفتاة الصغيرة التي تتوق لأن تمنحها لحناً لك تغنيه .. وقلت لك :

– أحب البحر هكذا .. حقيقياً عاري التعب والملل .. بلا قناع من غلالة قمر .. ينوء بثقل الشمس على صدره رغم حبه لها ..

– انه يحبها في الليل حينما تكون بعيدة .. هل رأيت البحر في الليل؟ إنه وجه لإنسان يحب .. مليء بالظلال والمخاوف والزفرات .

– وحينما تكون قريبة ؟

– يحبها لأنه يعرف انها ستبتعد بعد حين .. الشرط الأول للحب الحقيقي هو التحرق الى اللقاء .. هو السعي لتحقيق الطمأنينة .. انه الدرب الى الغاية لا الغاية نفسها .. يبلغ أوجه في اللحظة التي تسبق ثانية اللقاء وينطفىء .. بعدها بثوان ..

– انها المأساة .. ان نقضي عمرنا ركضاً وراء كأس لأننا نموت إذا لم نشرب منها .. وإذا وصلنا اليها ، وشربنا منها متنا أيضاً .. في الحالة الأولى يقتلنا الحب والوجد .. وفي الحالة الثانية يقتلنا اللاحب ! يقتلنا أن نفهم أنفسنا ..

– ولكنك صغيرة .. هل تؤمنين حقاً بما تقولين ؟

– أجل ! للأسف .

– غني .. قولي أي شيء ..

وأغني .. وأغني حكاية الأعماق البكر التي لا يطالها انسان .. أغني حكاية العزلة التي لا مفر منها لمخلوق ..

كل منا في قفصه الزجاجي العازل .. نتخاطب دون أن يسمع أحدنا الآخر .. نقضي العمر تائهين في الغابات .. في الشواطىء .. بين الجزر.. بلا مرفأ بلا مأوى .. حتى إذا ما أطل مرفأ من بعيد .. أدركنا أنه ليس لنا ..

– صوتك مفعم بلوعة غامضة ، ومرارة تحرك وتراً دفيناً في أعماق الناس جميعاً .. سوف تنجحين .. اني أفهمك جيداً .

سعداء .. سعداء بحكاية التشرد كنا . لماذا تهاجمني الوجوه هكذا ؟

أيها الأرق الممزق ، لم عن أهدابي نتف السعادة التي عرفناها .. ايتها الوجوه التي تنبع من خوري وجبني وضعفي .. يا وجوه الذين أحبهم والذين أكرههم .. أعرف ماذا تمثلين .. أعرف انك من بعضي ... كما أن وجهه من بعضي ..

وأنا أتمزق كحيوان خرافي له رأسان كل رأس يتجه الى ناحية معاكسة للآخر .. أيها الأرق دع المدينة في رأسي تهدأ .. دعني أنس .

... مرة ، وكان الليل اسطورة خضراء تتدفق من عينيك لتملأ البحر أمامنا .. مددت لي يدك ، وألف حكاية ضياع على كفك .. ولم أتردد.. عانقت يدي حكايا الضياع في كفك وللمرة الأولى عرفت نشوة السحب التي تئن رعداً حينما تصعقها رعشة اللقاء ..

وانبثق البرق في عيوننا وأحسست النار تنتقل من يدي الى حلقي .. أخذت أتنفس بصعوبة لم أعد بحاجة الى التنفس لأحيا ما دمنا هكذا .. وتظاهرت بأنني أريد أن انتشل يدي من يدك كي تزيد في حصارك لها، كي تشدد قبضتك عليها حتى تفتت أصابعها وتحيلها اصبعاً واحدة جديدة تنضم الى أصابع يدك أبداً ..

واستمر العراك الرائع دقـائق وجيزة .. وكسمكة عشقت شبكتهـا استرخت يدي في يدك .. وهنا حنوت عليها ، وأمسكت بها من أصابعها برفق وقربتها من الشمعة الحمراء التي توسطت منضدتنا .. وكـان نورها النحيل يتسلق جانب وجهك ، فأحسسته دفتر حنان غنياً بالكلمات الدافئة، غنياً بحنان المرافىء الغارقة في سحر أمسيات شرقية مثيرة ، وأنا غجريـة تبحث عن مرفأ حنان ..

ثم أخذت تقرأ كفي أو هكذا ادعيت .. كنت تمسك بكفي وتقـرأ في عيني وتغوص في مجـاهلها لتروي بؤس دروب ما لها آخر ، ولتشم رائحة أمطار حزينة تلاحق الغجرية التائهة ، ولتسمع صرير أبواب صدئة لم تفتح منذ زمن بعيد ، ونمت على الأحجار حولها نباتات الشوك والعليق لتملأ المكان بالتوحش والنفور .

وقلت لي : هناك غجرية ملول ..

— تحب مللها ..

— لا دار لها ..

— ولا تحب أن يكون لها دار لأنهـا تكره الأقنعة .. المدينة قنـاع ترتديه الغابة .. وهي ما زالت ابنة الغاب ..

— هنالك رجلان يتنازعانها .. أحدهما يحب أن يمنحها داراً .

— وقناعها يحب الدار .. وهي ترتدي قناعها كي ترسم ابتسامة على وجه الذين تحبهم وتحس انها مدينة لهم ..

— والرجل الآخر لا يملك لها سوى حكاية تشرد جديدة ..

— وهي راضية بها لأن الدار عـرَض ، أمـا الغربة والحزن فحقيقـة الوجود الانساني ..

وهي تبدو طفلة تبحث عن الشهرة بغنائها العذب .. لكنهـا كما لا يعرفها أحد ، تعيش أحزاناً نائية سحيقة الأبعاد .. تعيش ذاتها المفعمة باللامبالاة والتشرد والتوق الى حنان تعرف انها لن تجده ...

ـ وهي لذلك أحبت الرجل الذي يمثلها والذي يحمل لها في وجهه حكاية لامبالاة وتشرد وحنان .. ان حبها له تقديس لذاتها .

ـ بل تكريس لنرجسية الفنانة فيها ..

ـ وماذا ترى أيضاً في عيني .. اقصد .. كفي ..

ـ أرى غجرية تحب بحثها عن المرفأ أكثر مما تحب المرفأ نفسه .. سوف تكرهه إذا وجدته وإذا قيدت صخوره مرساتها .

ـ ارثي لهذه الغجرية التي تجرجر مرساتها ومأساتها تائهة في البحار ..

ـ بل انك تحسدينها .. انها في نظرك تمثل حقيقة الحياة .. انها تمثال عار لحقيقة الوجود البشري .. ستكونين بائسة يوم تتخلين عنها ..

ـ وماذا ترى أيضاً في عيني .. اقصد .. في كفي ..

ولعلك رأيت حقاً .. ولذلك صمت .

آه لماذا لا أملك إلا ان أجتر كل شيء ؟ هذا الأرق الرهيب ينكأ الجروح ... يمر بعصاه السحرية على قبور الماضي فتهب الحكايا من أكفانها حية جديدة والنزف ما زال حاراً في جراحها .. يا لخيبة عمري .. كيف أنسى !

.. وكان وجهك يتألق بحيوية تشع أملاً لما قلت لي : دعينا نرحل معاً ... الى أي مكان .

كم كانت الفكرة رائعة .. لن تمزقني غيرتي بعد اليوم وأنا أعرف ان زوجتك التي تغفو الى جانبك طوال الليل تسرق من صدري أنفاسك .. تمتصها من وسادتكما المشتركة .. سوف نبقى معاً .. نتشرد معاً .. وأنفاسك لن تكون لغيري .. وصدرك مرفأي وحدي ..

ولكني رأيتكم مساء تسيرون .. أنت وزوجتك وأطفالك .. وكنت أرقبكم من بعيد . أسير وراءكم كالذئبة التي صممت على أن تختطف راعي القطيع ..

وببساطة تمنيت أن أمزق زوجتك .. أن أفترسها .. ولم أخف نفسي

عن نفسي وراء قناع حنان مفتعل او رأفة مصطنعة . اني أمقتها ..

ولكن إحدى بناتك تعثرت .. وسقطت على الأرض بحنان .. وبكيت أنا .. بكيت في الشارع .. بكيت لأنني طالما سقطت ولم يرفعني أحد ولم يرفعني أبي لأنه كان قد هرب مع امرأة ضائعة مثلي ..

وليلتها جاء كمال يمنحني عمره .. ولم يكن علي أن أسرقه كي يكون لي .. وليلتها رضيت . لا من أجل زوجتك .. ولكن من أجل الطفلة التي كنتها ذات يوم .. رضيت كي لا تكبر طفلتك مثلي وتصبح غجرية مشردة بلا مرفأ ..

ولكني أرفض أن أصدق .. كيف أتركك وأمضي بعيداً ؟

وحكايانا الحلوة الصغيرة ؟ والناس الذين كنت أغني لهم بصوتك في حلقي، بأنغامك في صدري ، والجرأة التي كنت تمدني بها فأواجههم بها، والنجاح العذب ، النجاح الكبير حينما أثير في صدور الغرباء مشاعر كالتي تعيش في صدري.أصنع لنفسي اسرة كبيرة مجهولة تشاركني ضياعي وغربتي..

وأنت .. وأشياؤنا الصغيرة ... وضحكاتنا ..

مرة .. وكنت الى جانبك في سيارتك المشحونة بالفوضى .. وكنت أرقب الشوارع والمارة والمخازن الملونة ... وفجأة هتفت: ما أجمل ذلك !

وسألتني : ماذا ؟ هل هو شاب أعجبك ؟

— لو كان شاباً أعجبني لاكتفيت بغصة تموت في حلقي ..

— هل هي فتاة جميلة ؟

— لو كانت فتاة جميلة لنظرت اليها بصمت ، ثم لاختلست النظر الى وجهك لأرى اذا كنت تنظر اليها أم لا !

وكانت دوامة من الضحك الرائع .. أنت لي .. ستنظر الى الوجوه كلها ولن ترى إلا وجهي .. وستضم اليك عشرات الأجساد ولن تحس إلا بصلابة يدي في يدك .. أنت لي .. بل كنت لي .. لماذا أعذب نفسي ..

وماذا بعد يا ليلة الأرق الممزقة .. وهذا السرير الذي صار ثقيلاً

كأني أنا التي أحمله لا هو الذي يحملني .. فلأخرج من غرفة نومي .. أنهض .. أتسكع في غرف الدار المظلمة شبح قتيل لم يثأر له . وشريط عمري المتعب ينزلق ، يلاحقني ...

... وكنت في المقهى مع بعض الأصدقاء لما احتد النقاش ، ووجه أحدهم كلامه لقناع الفتاة ذي الملامح الجادة : قولي ، ما رأيك ، ماذا نصنع ، ما رأيك بتوزيع المناشير ؟

وتتحمس الحمقاء وتخطط .. وتنفذ .. آلة من الآلات البلهاء المنومة تنويماً عقائدياً .. فتاة من فتيات المدينة تلعب أكثر من دور ، ينزلق على وجهها اكثر من قناع ..

لكنه وجهي الحقيقي ، وجه الغجرية يسخر من الحماسة ، وضجيج النقاش في أذن الأبدية طنين بعوضة .. لا شيء يهز ابنة الشوارع المظلمة الفارغة وخطاها التي تجهش على الأرصفة الخشنة ..

انها تحب الخير والحق والحرية والمبادىء التي تدعو اليها الأحزاب جميعاً لكنها ليست مسؤولة عن أي شيء في هذا العالم .. ليست مسؤولة عن أحد ، لا أحد يهمه أمر أي انسان آخر ، وكلنا حبات عنب متفرقة انفرطت من عنقود مجهول ولن يلم شعثها تشريع او عقيدة او نظام ..

لماذا أناقض نفسي ؟ ما معنى رغبتي الطاغية برسم ابتسامة على شفة جدي ؟

ما معنى خوفي على ابنتك من أن تكون مثلي اذا غادرتها ذات يوم ، غجرية بلا مرفأ .. لماذا أدعي ان لا ارتباط لي بالآخرين ؟

ولكنني لا أدعي ذلك ، انني أحيا بصدق عزلة شهاب يهوى وحشته لعله قناعي .. هو الذي يرتبط بهم بطريقة ما ، قناع الفتاة المهذبة صار جزءاً من وجهي ، ترى لو انتزعته هل يتبقى أي شيء تحته ؟ ألم يتأكل وجه الغجرية مع الأيام ؟ لو هجرت قناعي هل يتبقى لي اي وجه ؟

ترعبني الصورة وأهرب منها الى الشرفة .. وفوران الوجوه المحموم

ما زال يلاحقني .

... البارحة صباحاً ، والمطر يغسل نوافذ سيارة كمال التي حملني بها لأرى دارنا الجديدة التي تم إعدادها والمطر يبكي ويبكي لتبدو الشوارع والوجوه من خلاله غريبة وسحيقة البعد . كأنها ذكرى دامعة لحكاية تشرد غالية ، همس كمال : اني سعيد بك ... لا أستطيع ان أصدق انك ستكونين لي بعد أيام ..

ولم أقل له انني أنا أيضاً لا أستطيع ان أصدق .. أحسست انني دمية مقيدة بخيوط لامرئية الى أصابع لاعب مجنون يحلو له أن يحركنا كما لا نشاء ، يدفع بنا الى حيث لا نريد ، ينتشل من دربنا الأشياء التي نعشق.

ووجهك كان يذوب في المطر .. وحكايانا .. وألحانك .. والغجرية التي أضاعت المرفأ لما فقدت وجهها. وفقدت وجهها لما علمت ان المرفأ ليس لها.

ويهمس كمال : ستغنين لي وحدي بعد اليوم ..

يضحك القناع بفرح عروس صغيرة تقبل على حياتها الجديدة .. وينحل وجهك في المطر .. بعد غد أرحل معه .. هذا الليل متى ينحسر ؟ اني متعبة ووحيدة كالآلهة وكالأبالسة .

أعود الى غرفتي .. أرتدي ثيابي وأنا لا أدري ما أفعل .. أسير نحو باب الدار .. أفتح الباب لأخرج .. الى أين ؟

وأعود الى غرفتي .. أرتمي منهكة على سريري .. تنهار مدينة الأرق على رأسي .. تتراكض الوجوه .. وتدور ، تعول ، تضحك ، تصرخ ، تقترب ... أسقط في هوة عميقة ... استسلم للعذاب المبهم الذي لا يوصف.. العذاب الذي لا يتركز في عضو من الأعضاء ولا ينبع من فكرة معينة، عذاب شامل ممزق يشمل ابعاد وجودي كلها .. وأستسلم ..

بصعوبة أفتح عيني .. ضوء الفجر ينسكب من النافذة خافتاً رمادي البريق..انهض من غيبوبتي صافية الحزن، كصخرة طهرتها الرياح والأمطار.. يجب أن أسير قليلاً وحدي ، يجب أن أرسخ هدوئي .. أن أستكين

لمصيري المفجع الذي لم أصنعه أنا ..

أفتح باب الدار بهدوء ، ما زال جدي واخوتي في براري الأحلام .

أنا في الشارع وحيدة .. الشارع الطويل الحزين الذي ينسحب الظلام الى زواياه بينما الفجر الفضي يحتل أرصفته ويشع من النوافذ المبعثرة .. لم يستيقظ أحد بعد .. ما زالت المدينة تغط في النوم ، تنعم بالموت الموقت..

وأنا الغجرية التائهة في مدينة الأساطير النحاسية تبكي المرفأ الضائع .. تبكي الدروب التي نجبر على السير فيها، والغرباء الذين نقضي رحلة العمر معهم ونمثل السعادة وفرحة اللقاء ..

هذا انسان يطل من بعيد .. يسير ببطء في أقصى المنعطف .. يتجه نحوي .. يقترب .. يضرب الأرض بعصاه .. انـه صديقي في الشارع الميت .. صديقي في المدينة النحاسية .. صديق تشردي في الفجر الذي لا يريد أن يضيء .. يقترب .. يسير متجهاً نحوي تائهاً لا يراني .. يا لله .. انه أعمى . صديقي أعمى يضرب الأرض بعصاه ويسير في دروب مجهولة لا فرق لديه بين الفجر والغسق .

وأحس بارتباط عميق بيني وبينه .. وأسير الى جانبه .. دون أن يسمع وقع خطواتي ..

أسير الى جانبه أتحسس الأرض بعصا نظراتي وهو يتحسسها بعصاه .. انه يتحدث .. يحدث نفسه .. لا يعنيني ما يقول .. وأنا أيضاً أهمهم . أحدث نفسي .. ونسير .. ونسير .. ونلوح من بعيد كإنسانين صديقين.. يغمرني ارتياح مفجع فأنا معه أمثـل أقصى ما يمكن أن تصل اليه أمتن الصلات الانسانية .. بلا زيف وبلا افتعال للحديث ..

والى جانب الأعمى أسير .. كل يحدث نفسه .. وتطلـع الشمس .. وينسكب الناس في الشوارع .. وتفور فقاعات الوجوه حولي .. ويضيـع الأعمى مني في منعطف ما ..

القيد والتابوت

وتمزق ظلمة غرفة النوم الأنيقة صرخة ميرنا . صرخة فيها من الأنين اليائس أكثر مما فيها من النداء المستنجد .

ويقفز فؤاد من سريره ليضيء النور بينما تستحيل صرخاتها الى كلمات:
« فؤاد .. مات أبي .. مات أبي .. »

يقترب منها ويمسك بها من كتفيها . يحاول أن يغمرها بنظرات دافئة حانية ، ولكنه رغماً عنه يحس برعدة باردة وخازة تجتاح جسده بينما هو ينظر الى عينيها السوداوين ويرى انهما ازدادتا اتساعاً وعمقاً ، وان أشباحاً من غيوم سود معولة تدور فيها كدوامتين مرعبتين في عيني عرافة ..

– ميرنا .. ماذا حدث ؟ كنت تحلمين ..

– للمرة الثالثة .

– كفاك أوهاماً ..

– وكان أبي يلتهب فوق غابة موحشة ..

– كفاك أوهاماً ..

– وكانت النجوم فوق الغابة ترسل أضواء حمراء كاللهب الذي يخرج من فم تنين ..

– كفاك أوهاماً ..

ـ ولم يكن يصرخ أو يستنجد .. ثم سقط بين الأشجار سحابة من رماد ..

ـ كفى .

ـ ثم هبت ريح مشحونة بالعويل وبموج شرير كأنياب ذئب أعمى وغمرت الغابة ..

ـ ميرنا .. ما هذه الأوهام يا عزيزتي ؟

وتصمت ميرنا ، ولا يجرؤ فؤاد على النظر في عينيها ثانية ، ويهرع ليطفىء النور خوفاً من عيني العرافة .

تتنهد ميرنا بارتياح حينما يرتمي الفجر من النافذة كأنها قضت الليل كله وهي تفرغ أمواجه السود بعيداً .. وبصدفة مثقوبة ..

وها هي أمواجه قد انحسرت ، والشمس الحبيبة ، كم تحبها اليوم لأنها طلعت أخيراً ..

لم تعد تستطيع الانتظار . تركض الى الهاتف أصابعها تتشنج فوق القرص وترتجف ، بقلق متهم ينتظر القرار الأخير ..

ـ ألو .. أريد أن أتحدث مع أبي ..

صوت ممزوج بالدهشة يجيب : ولكنه نائم .. هل أوقظه يا سيدتي؟

ـ أجل !

تمر لحظة صمت تحسبها طويلة ..

وتسمع صوته الحبيب متخماً بالنعاس :

ـ ألو .. ميرنا ..

ـ صباح الخير .. (يسمعها مرتعدة لاهثة) ..

ـ هل جرى شيء ؟ ما بك ؟

ـ أبداً .. لا شيء ولكن ..

– انها السادسة صباحاً .. هل حدث شيء ؟

– لا .. آسفة ولكنني ..

– ماذا ؟ قولي .

– أحببت أن أذكرك بموعدنا الليلة ..

– طبعاً حبيبتي .. سوف نسهر عندك كما اتفقنا .. والآن .. قولي السبب الحقيقي الذي جعلك تهتفين الآن .. هل فؤاد بخير ؟

– أجل . انه نائم .

– والأولاد ؟

– لا تقلق . لا خطأ في الدار . الخطأ في ساعتي التي تشير الى الثامنة والتي جعلتني أزعجك .

– هذا غير صحيح ..

– لماذا ؟

– ساعتك هدية مني انتقيتها لك بيدي . وأنا عادة انتقي الأشياء التي لا تخطىء .

وتصمت . كم تحب ذكاءه حتى حين يوقع بها . ستعترف .

وينقذها بضحكته الحلوة وهو يقول : على أية حال أنا مسرور لسماعي صوتك .. الى اللقاء .

***

آذار جنية شريرة انطلقت في شوارع بيروت تنفخ الريح الدامعة بالمطر ، وتكدس آهاتها المثقلة بالغيوم على صدر الشوارع الحزينة .

وميرنا ، رغم الغرفة الدافئة وضحكات الضيوف المرحة ورائحة الشراب ، تحس بضيق عجيب .

تحس انها وحيدة تسير في الشوارع الطويلة الحزينة وان الريح الدامعة

بالمطر تمزق خدها وعينيها وأهدابها .. تسير بحثاً عن شيء تخافه .. قلقة كأن ضربة مجهولة ستنقض عليها ، بقسوة ، بطريقة ما .

يميل عليها فؤاد هامساً : ميرنا ماذا بك ؟

تبسم ، ويتذكر الموناليزا : لا شيء يا فؤاد .

وتتأجج النار فجأة في ركن الغرفة . يرى الدوامتين الحمراوين في عينيها الغامضتين كعيني عرافة .. ويحس بالرعدة الباردة الوخازة ، وتعود ضحكة أميل لتطرد كل شيء من عينيها ومن عروقها .. البرد ، ودوامتا الدم ، والشوارع الحزينة ..

وتتأمله وهو يتكلم دون أن تسمع ما تسمع .. هذا الوجه الذي يتقد حيوية وجمراً ، هذه الملامح التي تنبض عضلاتها برقصة الحياة المرحة ، هل يمكن أن تهدأ .. لا .. لن تستسلم لذلك النذير الموجع في صدرها .. لن تستسلم لأحلامها المزعجة .

وتعود ضحكة أميل لتطرد كل شيء .. يطفح وجهها بشراً وتمد يدها لتأخذ الكأس التي أعدها فؤاد لها . وابتسامة دافئة . ونمر يضحك . وأمها رائعة . وصورة أبيها على الحائط وراءه . والأولاد نائمون . والغرفة دافئة . كل شيء بخير .. لماذا تهرب ؟

ولكن شيئاً غريباً دخيلاً على الأصدقاء تحسه يتسكع في الغرفة. وتتلفت حولها .. من الغريب ؟ من الدخيل الذي كانت تبحث عنه وتخافه في تيهها المبهم في الشوارع الحزينة الفارغة ؟

من الدخيل ؟ لا تراه .. لكنها تشم رائحة كآبة عتيقة تفوح من كيانه المبهم .. لكنها تسمع همهماته الشرسة عقب كل ضحكة من ضحكات أبيها . لكنها تحسه محشواً في مخمل الستائر .. في المخمل الأسود الذي يغطي منضدة جانبية صغيرة عليها تمثال أسود لحيوان غريب الهيئة،حيوان

خرافي تجمعت الهمجية والشراسة والعشوائية والسخرية في انفراجة أنيابه المدببة .. هذا التمثال ، لا تدري إلامَ يرمز ..

تسمع أباها يهتف فجأة : لقد أحضرت لك هدية يا نمر ..

ضاحكاً ، يسأل نمر : أظنك أحضرتها رداً على هديتي الفاخرة .

– وما هي هديتك الفاخرة ؟ تسأل ميرنا .

– لقد أهديت والدك .. قيداً ذهبياً نحمله به الى الذين حكموا عليه بالاعدام في البلاد المجاورة ..

ويخرج أميل من جيبه قيداً ذهبياً اسطوري النقوش كأن صائغه من غير البشر .. بينما يرفع نمر رأسه ضاحكاً :

– نخب إعدام صديقنا العزيز ..

وتنتفض ميرنا كأنها تسمع مسرحية مذهلة وتنظر الى أمها لورا مستنجدة بينما يشرب أميل ببساطة .. ويشرب .. ويشرب نخب إعدامه ..

وتحس بحاجتها لأن تصرخ . لكن نظرات فؤاد المحذرة بالمرصاد .. انه يفهمها أكثر مما ينبغي .

ويكمل أميل بينما هو يضع القيد الذهبي على مخمل المنضدة الصغيرة أمام تمثال الوحش المجهول : والآن ، خمنوا ماذا أحضرت لنمر .

– لا شك انك أحضرت لي هدية من صنع الصائغ نفسه .. الآن أفهم لماذا سألتني أن أرشدك الى من صنع القيد وادعيت انك تريد شراء سوار للسيدة لورا ..

– فعلاً لقد ذهبت الى الصائغ نفسه .. سرت كما قلت لي الى « شارع الزعقة » ودخلته من جهته الشمالية وبدأت أعد المخازن على الرصيف الأيمن حتى وصلت الى المخزن السابع ..

– اذن فقد قابلت الرجل العجيب الذي حدثتك عنه ..

– رجـل ؟ سمه كذلك مجازاً اذا أردت .. انه لا يشبه الباعة أو الرجال في شيء .. انه ..

وترهف ميرنا أذنيها لسماع وصف الرجل العجيب الذي يشتريان منه هداياهما ، ولماذا هو عجيب ؟ لكن أباها يمسك فجأة عن وصفه كأن قوة لا تقهر تسيطر على لسانه ..

– انه على أية حال صائغ مدهش . لقد أوصيته عـلى سوار للسيدة لورا فرفض أن يصنعه . لكنه أبدى استعداده لصنع هديتك عـن طيب خاطر ، وكاد يرفض الثمن .. قال انه سوف يتقاضى الثمن من ..

– ممن ؟

– لا يهم . دعني أقدم لك الهدية الرائعة .

وتجمد ميرنا وهي ترى أباها يخرج من جيبه تابوتاً ذهبيـاً صغيراً . ورغم امتعاضها لا تملك إلا الاعجاب بدقة صنعه بينما تهمس السيدة لورا منومة : حقاً ، كأنه ليس من صنع البشر ..

ينفجر نمر ضاحكاً بمرح عجيب :

– يا للهدية الرائعة ! تابوت رائع ، ثمـين .. سأحتاجه ذات يوم بشرط ..

– ماذا ؟

يضحكان ، وتفتعل ميرنا الضحك . تجاريها أمهـا وفؤاد .. ويمرر اميل التابوت الى ميرنا وأمها وزوجهـا الذين يقبضون عليه واحداً بعد الآخر بضيق مبهم ويدهشون إذ لا يحسون له وزناً في أيديهم كأنه سحابة وهم ذهبية ..

وأخيراً يصل الى يد نمر الذي يطبق عليه بكلتا يديـه في حنو عميق ويهزج فرحاً : عظيم يا اميل ! انه يتسع لي .. أظنه مريحاً ..

ثم يضعه فجأة الى جانب القيد فوق المخمل الأسود أمام تمثال الوحش

الغامض السخرية ..

وتنقضي السهرة وهي لا تسمع شيئاً سوى آذار ، الجنية الشريرة التي انطلقت في شوارع بيروت الطويلة الحزينة ، وفي « شارع الزعقة » وأمام المخزن السابع الذي اشتريا منه هداياهما البغيضة ..

وقبل أن تنام ، تتذكر ان ضيوفها قد نسوا هداياهم ..

وتعود الى الغرفة فترى القيد والتابوت أمام تمثال الوحش المجهول ذي الأنياب الساخرة .. ولا تجرؤ على الاقتراب منها أو لمسها لأنه يخيل اليها ان تمثال الوحش يقهقه بصوت مسموع ..

* * *

ترفع ميرنا سماعة الهاتف بتكاسل .

— ميرنا .. صباح الخير .

— أهلاً ماما .

— كيف أنت ؟

— بخير .. ما أخبارك ؟

— لا شيء .. سافر اميل ونمر .

— كيف ؟

— بالطائرة .

— وهذا الجو اللعين ؟

— قال ان الجو بالذات يغريه ..

* * *

ترفع ميرنا سماعة الهاتف بتكاسل :

— هالو .. نعم .. نعم .. ماذا ؟

تصرخ فجأة وقد استحال كسلها الى تحفز نمرة مفتوحة الجرح :

— ماذا ؟ ماذا تقول ؟ مستحيل .

تصرخ. سماعة الهاتف تسقط من يدها وتنوس معلقة في الهواء كذراعي يائس يهوي ..

ــ لا يمكن أن يكون أبي قد مات . لا يمكن .. طائرته سقطت في البحر ؟ مستحيل ..

وتركض باكية مجنونة الى سيارتها ، وتندفع بها في الشوارع التي طالما عرفته وأحبته ، الى داره .

تتسلق الدرج ولما تمح آثار أقدامه عنها .. تدخل الدار مجنونة ... هذا مقعده .. ما زال موضع جلسته فيه مقعراً .. لا يمكن . أين .. أين أمها ؟

ــ ماما .. ماما .. البابا مات .. مستحيل .. قلت انه سيعود .. متى ؟ متى ؟

***

أيام من الهباب الأسود الملطخ بالدمع . يبدو ان الذين يذهبون لا يرغبون في العودة . ان أحداً منهم لم يعد قط ..

وفي الشارع ، يشيعون جثة نمر في تابوت ، لا تجرؤ على أن تطل من النافذة لتراه ، لا بد أنه ذهبي اللون ..

أما أبوها ، فسيظل أبداً بلا تابوت ، مقيداً الى أعماق البحر حيث الصمت والظلام الملون الرهيب .. آه كم كان يكره الصمت !

وتنفجر دوامة الدم في عيني العرافة بينما تدخل أمها صارخة : ميرنا .. ميرنا .. أين هدايا أبيك ونمر ؟ أين القيد والتابوت ؟

ــ في مكانهما حيث تركاهما .. على المنضدة الصغيرة .

ــ لم أجد شيئاً .

ــ لعل أحداً قد غيّر مكانهما .

– سألت الجميع . قالوا إنهم لم يروا شيئاً ولم يلمسوا شيئاً . وبدت الدهشة على وجوههم وأنا أصف لهم القيد والتابوت ..

وتسير ميرنا نحو الغرفة بصمت جريح مليء بالكبريـاء .. بصمت من بدأ يجد الحقيقة .

كانت واثقة من أن أحداً لن يجد بعد اليوم القيد والتابوت . فالقيد.. القيد تراه الآن يشد أباها الى أعماق البحر حيث الأعشاب الرخوة وأسرار القاع ..

والتابوت .. تراه أيضاً في الضبابة نفسها يضم جثمان نمر ! لقد قال نمر انه مريح .. تراه وجده هكذا حقاً ؟

بصراحة تخاطب أمها : لا تبحثي ، لن نجدهما .

– لماذا ؟

– لأنهما من المخزن السابع الذي ..

وتلتقي نظرات الأم وابنتها . ومضة برق تصل بين عيونهما . تفهمان بصمت ما لا يفسر ..

* * *

ميرنا تسير نحو « شارع الزعقة » . تدخله من الناحية الشمالية . تعد الدكاكين واحداً بعد واحد على الرصيف الأيمن .

آذار جنية شريرة ما زالت تنفخ الريح الدامعة بالمطر والعويل الغامض. وهي تقاوم فكرة مرعبة جاءت لتتأكد منها ..

إنها تحصي المخـازن : مخزناً . اثنين . ثلاثة . أربعـة . خمسة . ستة .. ستة مخـازن فقط .. اين المخزن السابع الذي اشتريا منه هدايا الموت ؟

من هو الصائـغ العجيب الذي أمسكا عن التحدث عنه في اللحظة الأخيرة ؟

لم يكن في وجههـا دهشة ، فقد كانت واثقة من أنها لن تجد المخزن ..

كان فيه رعب حاقد مستسلم .. ادراك مكثف للحقيقة المفجعة ..

للمخزن السابع في كل مكان والصائغ الذي يهدي الجميع .

الاصبع السادسة

على شرفة القصر أقف خائفة ضائعة ، جمرة شتاء شتّتها بين الموانىء فما أضاءت في عتمات خوفها منارة ، ولا ومض هدب .

سماء المدينة ترعف الضباب والمطـر ، رائحة الخريف ، رائحتك ، شممتها في كل مكان ذهبت اليه .. رغم كل ما فعلت وما قد تفعل .. لم أحقد عليك .. ولم أمقتك . كان علي أن أبتعد ما دمت قـد طلبت ذلك .. كان علي أن أمضي كي أظل أحبك دونما مهانة .. ثلاثة أعوام وأنا في لندن أتم دراستي العالية كي أظـل بعيدة .. ثلاثـة أعوام وأنا لم أتلق منك كلمة ، ولم أسأل عنك قط ..

وها أنذي قد عدت ليطل شبحك من كل مكان ويسد منافذ الهرب كلها .. ها أنذي الآن أقف خائفة على الشرفة ، أتأمل قطيع الضيوف الذي جاء لتحيتي .. وهاماتهم التي تضيع خلف البـاب الواسع وتبدو لي من الأعلى منحنية كأنما هي تقدم ولاءها لأبهة القصر وضخامته .. أحاول أن أتلهى على شبحك الحبيب البغيض بتأمل ثياب النساء التي تلتمع حليها في الظلمة .. وتتوهج ألوانها حينما تسقط عليها أضواء المدخل .. وهكذا عدت الى سوق الغرور أتأمل مدينتي من بعيد .. اني أعرفها .. انـي أحبها وأحتقرها .. أحس انني غريبة عنهـا ، وأحس انني مشدودة الى أضيق زقاق فيها بقدرية مبهمة عجيبة .. بالقدرية نفسها التي تدفعني الى أن أظل أفكر بك على الرغم مما فعلت .. على الرغم من انك طردتني

ذات مرة بلا ذنب .. أحقاً انك وعدت أبي بأن تجيء الليلة لتعزف احتفالاً بعودتي ؟ أحقاً انك أضحيت أغنى وأعظم فنان في المدينة وان أجمل النساء يسجدن لأناملك المبدعة ؟ أحقاً انك فرضت اصبعك السادسة على المدينة كلها ودخلت الشهرة من بابها الضيق ؟ إن كنت قد فعلت ، فأنت عظيم حقاً كما عرفتك دائماً ! هل تصدق ؟ أمي التي كانت تأنف من تحيتك ، أمي نفسها حدثتني عما يسمونه جاذبيتك ، وقالت لي انك يا زميل الدراسة لم تعد فقيراً ، وانك توهجت ، بعد سفري بأشهر ، نجماً من نجوم مدينتنا . كم يسعدني ذلك .. اني رغم كل شيء لا أحقد عليك .. لا .. ولم أكن بحاجة الى كلمات أمي لأذكرك ، أنا التي أتأمل الوجود من خلال كفك العجيبة بأصابعها الست منذ التقينا للمرة الأولى.. تراك تذكر ؟ تراك تذكر يوم جئت الى الصف بعد الوقت المحدد بدقائق ، ولئلا أعرض نفسي مدة طويلة لسخط الأستاذ الغاضب جلست في المقعد الأول الذي صادفني وكنت تجلس يا خالد هناك .. وقبل أن أنصت الى حديث الأستاذ ، وجدتني أنتفض بخوف .. كانت هناك على المقعد يد .. يد عجيبة مخيفة لها خمس أصابع عادية كما للأيدي جميعاً ، ولها اصبع سادسة متمردة وقحة انتظمت بلامبالاة حقيقية الى جانب بقية أخواتها الخمس .. ووجدتني دون قصد مني أشارك الزملاء في نظرات الفضول المنصبة على يدك ، وكأنما أحست اليد المسكينة بذلك ، فتقلصت أصابعها الخمس العادية وانكمشت الى الداخل وظلت الاصبع السادسة متحدية وظل الزملاء يتأملونها وشحنات القسوة والبغضاء تود لو تصعقها ، لو تسمم عفويتها وطيبتها . ووجدتني أنتزع من نفسي عيون الآخرين المدقوقة في نفسي . وجدتني أتأمل اصبعك السادسة بنظرة حيادية صافية.. وكانت اصبعاً متمردة متكبرة ..

وأحسستها فجأة كائناً طيباً لا ذنب له في انه موجود .. وكائناً مدهش التحدي والنبل .. ولعلك لاحظت شحنات حقدنا الشريرة ، وكان المدهش

الذي هزني هو انك استللت يدك الثانية من صدرك ووضعتها الى جانب أختها على المنضدة بلامبالاة محببة .. وكان فيها ست أصابع أيضاً! وآمنت لحظتها بأنك شيء يختلف تماماً عن بقية الزملاء ، انك تصفع وضاعة النـاس وفضولهم بوضوحك ولامبالاتك وعزوفك عن الاحساس بالذنب الموهوم .. وكان علي أن أرى الوجه الذي يحمل لعنة هذه اليد ، وكان وجهك يعكس ما توحي به اصبعك السادسة .. كان عوالم غنى ولامبالاة واكتفاء .. رائعاً كنت .. حقل سنابل أنضجته الشمس، رائعاً وجدتك .. هادىء الوهدات رزين الصخب .. رائعاً كنت لما بسمت في وجهي بحنان كأنك فهمتني .. ملأتني بغبطة أول شراع لثم نسمة .. يا أبدع نسمة .. يا أنت .. كنت تعرف انني أحببتك حقاً وأحببت أن أقاسمك حياتك ، أية حياة .. أن أنبذ البيت الفخم لأعيش معك في الدار المتواضعة، كنت تعرف انني ما أحببت إلا اصبعك السادسة .. أنا وحدي من دون الناس جميعاً أحببتها .. وجدتها شيئاً ناشزاً مدهشاً في سيمفونية المدينة .. وأحببت سموك وأنت تحملها وتواجه وضاعة العالم المتأنق بها .. بقبحها وصدقها .. وأحببتك وأنت تواجه قسوة فضول الآخرين باستهتار واعتزاز .. كنت تفهم معنى التغلب على الاحساس بالذنب الذي يكبلوننا بأهدابه حينما نختلف عنهم في شيء ما .. كنت بكلمة واحدة اصبعاً سادسة كبيرة متحديـة نظيفة لا تشبه أحداً في شيء ..

أجل .. أحببتك هكذا .. وهكذا وضعت يدي الطفلة في يدك البدائية التي غسلتها الشمس ولم تدنسها المدينة .. وهكذا اكتشفنا الشاطىء الحلو .. يا خالد .. اني أراك الآن كما كنت أراك كل أمسية مع كل غروب .. اني أحس التعب المخمور في وقفتنا .. نهوي الى الرمل .. الملم بأصابعي مساكب الشمس عن جبينك أعد خطوطه ، تطفح عيناك بالخمر ، أشربها من أهدابك ، شفتاي بـرك صيف عطشى ، يا لغيثك المنعش ، تموت الشمس نستسلم للظلمة ، لآلاف النجوم تنهل من ضياء همساتك ، لآلاف

النجوم التي ترشقها في عتمة شعري .. أزهو بها على الصبايا كل الصبايا.. يطلع القمر .. ينوس بين غيمتين حينما تعزف على قيثارتك .. مـا كان أزكى أناملك ، ما كان أبدع ألحانك التي لا يشبهها لحن في المدينـة .. ألحانك الموج المستسلمة المشبعة بثقافة إنسانية كاملة ، ألحانك ذات النكهة التي لا تشبهها نكهة ، ألحانك العجيبة كأصبعك السادسة العجيبـة . كان يخيل اليّ انك تعزف بها وحدها ، تبـدع ، تختلف عن الآخرين بهـا وحدها .. يا خالد .. حينما أذكر ، يدهشني اننا استطعنا أن نفـترق .. لم يكن بيننا حجاب .. كنا شيئاً واحداً ، كنا سنقتسم مصيراً واحداً .. نتحدى المدينة وأموال أبي ونتزوج .. لماذا طردتني ؟ أنا جمرة الشتـاء الحزينة لمـاذا شتتني ؟ الذكرى تسحقني .. بعد سنوات ثلاث ما زلت أتمزق شوقاً الى لقائك وخوفاً من لقائك .. ازداد التصاقاً بأعمدة الشرفة وأنا أنتظرك..خائفة ضائعة كوثني يترقب حكم آلهته الغامضة التي لم يفهمها أبداً .. وأنا يا صديقي قد اقتنعت بأني لم أفهمك أبـداً إلا بعد فوات الأوان .. اقتنعت بأني لم أفهمك يوم حملت اليك هديتي لعيد ميلادك ، وأنا أقول لك : أتمنى أن تحتفل بعيدك في العام المقبل في بيتنا . وجهك ظل وديعاً حنوناً حتى فتحت العلبة : هديتي اليك ، وانبثق منها وميض ماسي وهاج .. وأخرجت منها زرين ماسيين لقميص السهرة كـانا من أثمن ما تحوي المدينة .. لكنك لم تشكرني .. لم تبسم في وجهي .. صمت وليتك ظللت صامتاً .. ثم انفجرت فجأة وأنت تنتحب وألقيت بهـديتي الماسية الى أرض كوخك المتسخة .. ثم طردتني من حياتك بوحشية .. ما زلت أسمع صيحاتك « أيتها الحمقاء .. اذهبي ولا تعودي أبداً أيتهـا المخادعة .. هل تجرؤين على الزواج بي . اذهبي » ..

ومضيت .. وتوقعت أن تقول شيئاً ..أن تلحق بي .. أن تعتذر .. أن توضح الأشياء . وانتظرت طويلاً وصمت طويـلاً لكنك لم تفعل .. وحملت أشواك الكبرياء ولم ادن منك .. ذهبت ببساطـة لأتم دراستي في

جامعات لندن .. ألم أقل لك ان أبي لم يكن ليرفض لي طلباً؟ ومضيت.. ورغم الأشياء كلها ، بين جفني خبأتك كأسمى مقدساتي .. حملت صورتك وطفت بها العالم،فما مزقتها ريح لفحتني عند جسر واترلو ، وما طمستها ندف ثلج في برج إيفل ، وما شوهتها شفتا شاب أشقر في فيينا ، وما عبثت بمعالمها ليالي الدراسة والتعب .. وظللت أنت أنت .. تضحك .. تجابه العالم بأصبعك السادسة . وظللت تعذبني لغزاً مبهماً .. وظللت أبداً أتساءل .. لماذا تخلصت مني فجأة وبهذه القسوة والغموض ، وأنا التي ولدت في صمت الغابة ضبابة متكبرة صامتة ، لماذا ألقيت بالزرين الماسين الى الزاوية المفتنة ؟

الليل يلسعني بصقيعه .. سوف أدخل الى الناس الذين جاؤوا لتحيتي.. لا بأس .. سألقي نظرة أخيرة .. يالله .. ها قد جئت اني أعرفك . ها قد جئت مضفوراً بالليل والخريف ، اني أعرف مشيتك وقامتك .. اني أعرفك ، لو اني أبكي .. لو اني أغني .. لو انك تحملني وتذهب بي الى عوالم وأزمان سحيقة البعد .. ها قد وصلت الى الباب الضخم ، يخيل إلي انك تحنو هامتك لتدخل .. وأنت أيضاً صرت تحنو رأسك للقصر يا خالد ؟ الباب يبتلعك ، لكنني ما زلت معك .. أحس انك تدوس البساط الآن بقدميك .. أحس انك تتسلق الدرج الواسع .. تدخل الى القاعة المليئة بالناس .. يتحلقون حولك ، غانية تصافحك ، عوانس يلاحقنك .. أحس انك تتلفت حولك مستطلعاً .. عيناك تبحثان عني .. لست في القاعة ، لا تبحث .. اني هنا أمضغ أيامي في قلعة السأم .. اني هنا جمرة الشتاء الحزينة ، ويداك تتحسسان الجداول الصلدة الطحلبية.. ماذا تريد أيها الغريب من جديد ؟ أي بؤس تحمله يداك ؟ أي عذاب تخفيه اصبعك السادسة ؟ أي مصير دام ؟ ألا ترى .. انني متعبة .. متعبة .. ثلاثة أعوام وأنا أحملك بين جفني .. ثلاثة أعوام والاهانة تأكل من أعصابي ودمي،ويظل حبي أقوى من الاهانة .. يا أنت .. يا اصبعاً

سادسة عجيبة تتحدى المدينة .. أنت ما لم أستطع أن أكونه .. مرة ثانية تطل الخادمة .. أعرف أنها جاءت لتناديني .. سوف أدخل بعد دقائق .. قولي لهم أن يبدأوا .. تمضي وأعود وحيدة من جديد . وأطل على المدينة المستسلمة .. أراها خلف ظلال أصابع يدك الست ما زالت ترعف الغبار والمطر . كفك العجيبة كم لاحقتني .. ما هذه الألحان التي بدأت تنسكب من الداخل مع الدفء المشبوب .. انك تعزف .. لا شك في انك تعزف .. خيوط ألحانك الشاحبة تقيدني .. تشدني الى الداخل .. الى حيث الناس في ثيابهم الثمينة ومقاعدنا الفخمة .. لا أحد يلحظ دخولي .. كلهم ينصت لعزفك .. ها أنت جالس الى البيانو وقد وجهت ظهرك إلى الباب الذي دخلت منه .. كتفاك .. ظهرك رقبتك .. اني أعرفك .. رأسك البيضوي المحبب . هذا مقعد اهوي اليه .. أغمض عيني .. أحب أن أعود الى دنيا ألحانك أمضغها ، أمتصها ، أحيا بها ، أسجد لها .. استسلم للنغم وأنصت .. ما هذا اللحن الماجن الملون الأجوف .. لا يمكن أية اصبع سادسة أن تعزف هكذا يا خالد .. انهم يصفقون . تعود الى العزف .. لم يعد في ألحانك أي مضمون إنساني .. أية رعشة وجدانية صادقة .. أنغامك أشبه بوجه عجوز صدىء ينوء بالاصباغ والألوان السائحة .. أصبعك السادسة لا يمكن أن تعزف هكذا .. لا يمكن أن تبذل نفسها لتصفيق الهاتفين .. اني أعرفها جيداً .. اني أحبها .. زران ماسيان يلتمعان مع حركات يدك .. سبق أن أهديتها لك يوم طردتني وقذفت بهما الى الوحل .. ماذا حدث ؟ أي غموض يحوطك .. أي سر تخفي في حناياك .. لحنك يغرق من جديد في سطحية مؤسفة .. يصفقون لك ، أكاد أبكي أيها الفنان الميت ..

يا خالد .. يا أنت .. يا حطام أنت .. ماذا صنعت بي وبنفسك ؟ وتتوقف عن العزف تلتفت ، يلتفون حولك مهنئين .. أصبحت بائعاً عظيماً في سوقهم .. ماذا دفعت يا ترى ؟ يلحظون وجودي .. يطبقون

علي مهنئين مستقبلين .. كيف أنت ؟ هل ستعودين الى لندن لتحصيل الدكتوراه ؟ هل أحسست بالشوق الينا .. هل .. هل ؟

أستحيل آلة رائعة من آلات المدينة .. أصافح .. أبتسم .. أنحني . يخنقني الغثيان .. أضحك .. أمقتكم .. أشكركم .. تتجه أنت نحوي . يا لقامتك المحببة .. اني أرتعد .. قلعة السأم تتهاوى .. أنا جمرة الشتاء الحزينة .. اني أخافك أيها الغريب .. ماذا تبغي من عذابي ؟ أنفاسك صارت قريبة .. وهجها يدفئني .. يتمسح بوجهي .. تمتد يدك لتصافحني يدك الحبيبة كم أنا بشوق اليها .. كم أود أن أسكب نفسي في قبضتها .. يدك الغالية أمد يدي لأصافحها .. ما هذا ؟ أين .. أين الاصبع المتمردة؟ أين اصبعك السادسة ؟ أين اصبع الانفة واللامبالاة .. تجمد يدي . أعين الضيوف مسلطة علينا .. تتمتع بالمشهد البائس .. أنا من جديد آلة بلهاء من آلات المدينة . أصافحك وأنا أبتلع دموعي .. يا أنت .. يا حطام أنت .. لماذا صرت هجيناً ؟ لماذا قطعت اصبعك السادسة ؟ هل صرت تخشى نظراتهم وفضولهم ؟ هل أصبحت تسعى لارضائهم .. ما أقبح الزرين الماسيين ، هل استعضت بهما عن اصبعك السادسة ؟ كان علي أن أدرك ذلك منذ سمعتك تعزف .. وأعود أستجدي من وجهك كبرياءه وعزته .. لا أجد شيئاً .. الى الشرفة أنسحب .. لا أحد يهمني .. أنا جمرة الشتاء الحزينة . من جديد أزحف الى قلعة السأم .. من جديد تعلو الجدران الصامدة .. أسند خدي الى العمود الرخامي .. أرعف مع سماء المدينة الضباب والمطر والدم .. ارعف ايامي وذكراك .. مرة قسمات وجهك صلبتها فوق قسمات وجهي .. أذكر ابتساماتك فأبتسم .. من جديد أقلع مع الصمت الى موانيء لم تلوثها ضحكة رجل كاذب .. فآدم لم يولد بعد .. وحواء لن تسجد لرخاوة الطين .. وقع خطاك خلفي .. التفت اليك .. يؤلمني أن أراك .. ماذا تتوقع مني ؟ تقترب مني أكثر .. أزداد التصاقاً بالعمود .. ماذا تريد ؟ تخاطبني ، أسمع صوتك يتوسل .

ماذا أريد ؟ تعرفين يا سها ماذا أردت دائماً .. أنت .. أهتف بك : أنا ؟ ما هذه الأحجيات .. هل نسيت انك كنت قد طردتني ؟

انك تتحدث .. تتحدث بشراهة كما تأكل العجائز .. لم أعد أسمع ما تقول .. سحابة جراد تتناثر من فمك .. من تزلفك وتوددك .. ماذا تريد أيها الغريب ؟ اني أفهمك .. اني آسف لك .. انــي أغلق أبوابي من دونك .. ألا تفهم ؟ أحببتك اصبعاً سادسة عجيبة – شيئاً حقيقياً جريئاً يصفع المدينة بتعاليه ولامبالاتــه .. ولكنك حنوت هامتك .. لكنك في هيكل التخاذل والرياء قطعت اصبعك .. حملت جثة شخصيتك الحقيقيــة جــواز مرور الى أسواق الرياء .. لكنك أنت لم تعد أنت .. أضحيت كبشاً من القطيع .. كبشاً كبيراً ثميناً ، لكنك كالبشر، كملايين التافهين المستسلمين الجبناء .. ماذا أقول لك ؟ انك لم تفهمني .. لم تفهمني أبداً .. من جديد أصحو على صوتك وأنت تقول : ماذا ستفعلين ؟ لقد تنازلت عن كبريائي وكرامتي كي أساويك مالاً ومكانة .. دعينا نتزوج .

– لقد خسرت كي تكسبني .. وقتلت في نفسك خالداً الذي أحببت.. ما كنت لأحب لك هذا المصير .

تجيبني معتوهاً : ولكنك أنت التي دفعتني اليه ..

– أنا ؟ أنا دفعتك اليه ؟

تصرخ حاقداً : أجل .. أنت .. أنت أثبت لي انك واحدة من القطيع.. فحولت نفسي لأجلك الى كبش جديد .. حيــنما أهديتني الزرين الماسيين آمنت بأن كل ما قلناه عن التفاهم والمشاركة كان زيفاً منمقاً ..

– لماذا ؟ اني لا أفهمك ..

– لأنك حين أعطيتني هديتك الماسية لم تلحظي انني كنت أرتعد برداً، ولم أكن أملك قميصاً للسهرة ، حتى ولا رداء صوفياً .. وهكذا كان علي أن أكون شيئاً يناسبك فعلاً : يشابهك ..

تصفعني كلماتك ، تمزقني .. انك تهمس : لن تري وجهي بعـــد

اليوم .. لقد حطم كل منا صاحبه .. تخرج دون أن تنتظر جوابي .. إذاً فقد أسهمت أنا أيضاً في قتلك ؟ يا لأعماقي المظلمة المدللة التافهة! اني أحقد على نفسي كما أحقد عليك .. ان خطيئتي لا تبرر خطيئتك .. لماذا داويت الجرح بالجرح .. لماذا داويت التفاهة بالضعف ؟ الى ضيوفي أعود.. لقد اختفيت من البهو .. لا فائدة من البحث عنـك .. أي ارتباط لي بك ما دام صدأ نفسي لم يخالط صدأ نفسك.. لقد مضيت ووجدت الحل الوحيد الذي تبقّى لنا ... أعود الى ضيوفي .. أنا آلة بلهـاء من آلات المدينة .. دمية أضحك وألهـو وأفكر بك ، يا صنو ضعفي .. سقطت أقنعتنا ولم يعد بإمكاننا إلا أن نقف في الشمس كعيدان القصب .. عاريين إلا من حقيقتنا .. لقد سقطت أقنعتنا وأطل القصر من عيني قذراً بتكبره ولامبالاته ، وأطل الكوخ من عينيك متزلفاً هجيناً ، فلنهرب بخطايانا .. كل إنسان في المدينة قد خط حرفاً في سطر تعاستنا .. اننا نحن لم نعـد نحن .. هزمنا .. هزمتنا المدينة يا خالد .. جعلتنا نتخلى عـن أصالتنا . عن قدرتنا على أن نحب .. على أن نكون شيئاً متميزاً .. اصبعاً سادسة.. فلنضاحك القتلة ولنرعف الدم والمطر مع سماء الخريف .. انها الثالثة بعد منتصف الليل .. تعبت الدمى .. انهم يترنحون ويتدافعون قتلوا براءتنـا يا خالد في لحظة ضعفنا .. فاشتريت لك الماس بـدل الخبز .. وقطعت اصبعك لتبتاعني بها .. إنهم يودعون ويمضون .. يمضغون مع بقايا الطعام في أفواههم حكايا وجوهنا السقيمة.. يمضون .. يمضون جميعاً .. وحيدة مع أبي .. يعانقني وهو يهتف بحماسة لك ثروتي .. وأموالي كلها .. ماذا تريدين أيضاً ؟

أمواله ؟ لماذا ؟ كي أهدي كل إنسان يحمل اصبعاً سادسة زراً ماسياً؟ كي أقتل الناس الطيبين ؟

— أبي .. أريد أن أعود الى لندن كي أتم دراستي ..

— ماذا ؟ أما كنت قد عزمت على البقاء ؟

– أبي .. يجب أن أرحل غداً .. بعد غد .. أتوسل اليك .. يجب أن أمضي ..

يجيبني كعادته : كما تشائين يا حبيبتي ، لم أرفض لك طلباً طوال حياتي ، اسعدي الآن ونامي ..

– سألحق بك ..

يخرج . أنا وحيدة في القاعة أمام البيانو .. تسقط نظراتي على سواري الماسي .. على ماساته التي تلتمع بتهكم مفجع .. أغرق في جمود الماس .. أسقط على قطع الماس .. أسقط على أحد جبال الماس المهجورة .. قممه اللماعة مدببة وحادة تنغرس في لحمي .. لحن يضيع في كهوف بعيدة .. أغوص في صقيع السوار .. انتشل نفسي بصعوبة .. لا شيء .. لا أنت .. لا كفك العجيبة .. لا شيء سوى صقيع الماس .

جبال الماس تنهار ، تتكاثف ، تتكاثف . قطعه تندس في فمي وفي أذني . تقتلع عيني وتغرس في موضعها ماستين .. أنا دمية يشرنقها الماس ، تركض وراءك في دهاليز مشوهة من أجل لقاء تصلي كي لا يتم . أنا دمية الماس .. لا يهمني بعد اليوم أية غرفة ازين ، أية مائدة ، لأن جحيمي الأبدي هو انني عرفت نفسي ، وعرفتك .

الرجل ذو الهاتفين

كطلقة نارية طائشة أهيم في الشوارع،وبيروت عجينة صخب لامبالية، وأنت يا غريب أبحث عنك لأني اخترت لك أن تكون جلادي.

في بناء ما من هذه الأبنية المعلبة تجلس،وراء نافذة ينبت منها الضجيج الذي يضملك أبداً في دوامته .

يمرون بي ، وجوه كالجماجم المهترئة سوف أسفح لها كنوزي ، وقسماتي جامدة مشدودة كزند تمثال روماني .. سوف أرقص طويلاً وأغرس كعب حذائي الدقيق كالخنجر في قرميد ذلك القصر الذي عرفت جدرانه معنى الفاجعة ، معنى الحرب بين اللحم والأعصاب في جسد امرأة ...

« انها قديسة ، قديسة .. »

هكذا كان يقول لها زوجي وهما يغلقان الباب ، والرجل المشلول في الأعلى .. لم يكن مشلولاً يوم كان يحملني ، يرفع طفولتي على كتفيه كي أزرع في السقف حقلاً من شهب مراوغة ألاحقها في زوايا البيت وهي تهرب مني ، لا ، لم يكن مشلولاً يومئذ ولم أكن قديسة ..

وكانت هي سليلة الدم الأزرق تحاول أن تعلمني أسماء أجدادي ، تضربني كي أحفظ نصرت باشا وعزت باشا .. و .. كنت أكرههم ، أتخيلهم قراصنة مقطعي الآذان ، ولهم أنياب طويلة تنحدر من أفواههم مدببة ، وأنا أهذي : « أبي .. لماذا تزوجتها .. لماذا هي أمي ؟ » ..

كطلقة نارية طائشة ما زلت أهيم في الشوارع ، وبيروت عند الغروب غجرية تصارع السأم بغناء جامح الضجيج ، وأنا نبع من ضجيج أحسّني أهدر مع العابرين ، أنسكب في سيولهم التي تجتاز الطريق ، أتفجر في أبواق السيارات النزقة صراخاً ممزقاً مبحوحاً .. أبحث عن مكتبك يا غريب لأني اخترت لك أن تكون جلادي ..

من بعيد ، في مدينتي التي ما زالت تلف خطاياها بالحجاب والكفن كنت أقرأ لك .. وكنت أحب تلك الحروف الراعشة كأهداب طفل حيناً ، وكأهداب خاطئة أحياناً . تلك السطور المجرحة أبداً بالعمق ، بالفهم الكبير لمعنى الألم والرعب الذي ينبع من الوسادة ، يتغذى من أقبية الصمت حيث شدت أنوثة امرأة الى الأوتاد لتجلد ، والرجل المشلول في الأعلى ، في الغرفة المشمسة على السطح يقرأ الأدعية لإله النافذة المشمسة ! وعبارة قديسة يلصقونها على كل جرح ، على الباب الذي يغلقانه وراءهما .. أمي وزوجي !

« قديسة .. قديسة » ..

وكنت ضفيرة أعشاب مستسلمة للتيار ، أتلوى تحت وقع الكلمة ، أنهار . أضعف من أن أتمرد . أعزي نفسي بأنني قديسة لأنني أجبن من أن أكون انسانة .

وكنت أعرف ان الدم الأزرق يتعرى كل ليلة على فراشي ، يستحيل أحمر أخضر أصفر نهراً من قاذورات .. وكنت أنا أغب النهر كي لا يسيح في الشارع والحي ويسقط قرميد قصرنا فريسة لأحاديث سيدات الحي .. وكنت أدعي انني أصمت من أجل المشلول في الأعلى ، من أجل المرأة الأخرى التي هي أمي ، لكنني حينما كنت أدفن دموعي في الوسادة لأدعي انني قديسة ، كانت الوسادة تبصق دموعي اشمئزازاً لأنها تدرك جيداً انني لا شيء سوى ضفيرة أعشاب بحرية لينة .. بلا نبض .. بلا صلابة ..

« قديسة » .. وتقهقه امرأة ما وترعبني الضحكة الوحشية . أتلفت . لا أحد في الشارع الجانبي نصف المظلم سواي . أنا قديسة أيتها الجدران الصفر المهترئة . قديسة من نوع خاص . غداً حينما يلصقون على خدك الشاحب إعلانات جديدة هي صوري ، وترين الوجه الناقم كوجه نمرة أكل الكلاب أولادها ، وترين الساق عارية مسترخية تفهمين كيف أصبحت الآن قديسة . ولن تري على الجسد العاري أي جرح أو خدش ، ولن تقرأي كلمة قديسة ولكن حينما تسقط المدينة في أحضان الشتاء ويغسل المطر الصورة يأكل منها ، وتزحف على وجهها أضواء شارعك الباهتة ، ستعرفين معنى أن أكون قديسة لأنني استطعت أخيراً أن أتمرد وأن أطعن جثتي بخنجر ضعفي . (وسأكون وقتها على مسرح ما أغني للجماجم المهترئة . وأرقص . أغرس كعب حذائي الرفيع في القرميد الأحمر لأدمره . أتقلب نشوى بين أذرع الموسيقى الماجنة) .

أريد ، أريد أن أُمثّلَ بِذُلّي ، أن أصلب جسدي عارياً فوق القرميد الأحمر ، وأن أتركه للسكارى يقطعون الأيدي والأرجل ويتسابقون لملء أقداحهم من الدم ، وسوف تبكي أمي كلما قال لها واحد منهم ان دمي ليس أزرق وانه أحمر ، كالخطيئة ، كدمها !

كطلقة نارية طائشة ما زلت أهيم في الشوارع . لم أعد أعرف أين أنا .

يبدو أن علي أن أسأل إنساناً ما كي يرشدني إليك . لقد ضعت زمناً طويلاً . بل انني أردت أن أضيع . كي تزداد نار حقدي تأججاً . كي تلتقط عدسات مصوريك ثورة الجثث في عيني .

للمرة الأولى أريد شيئاً . وللمرة الأولى أحس أنني أكبر من قديسة لأنني صرت شيئاً يقرر مصيره . مصير امرأة ميتة تسعى .

سوف تجد أكثر من عنوان مثير للحكاية التي سأقصها عليك .. «سليلة

ملوك العثمانيين في سوق الجواري ! » .. لا .. إنه كثير الحذلقة كالأساتذة الذين كانوا يجيئون إليّ في الدار .. ليكن : « وارثة الملايين تهدي نفسها للملايين » .. لا لن يعجبك هذا أيضاً .. على أية حال سوف تجد العنوان بنفسك وسأحدثك بكل شيء . لقد اخترتك لتكون جلادي وأنا واثقة انني أحسنت الاختيار ، رغم انها المرة الأولى التي أمارس فيها تجربة الانتقاء .. حتى زوجي لم أختره أنا .. كان الرجل الوحيد الذي يلائمني في المدينة .. انه مثلي ، وارث ، وأزرق الدم ، هكذا قالت أمي منذ عام،وكان ذلك يكفي . لقد أحسنت الاختيار لنفسها !

بوق سيارة . ألتفت . لوحة الرقم حمراء . أستوقفها . على المقعد أرتمي . أخاطبه بصوت لم أعهده في نفسي . صوت يشبه ضحكة المرأة في الشارع الجانبي حينما لم يكن فيه سواي : هل تعرف مكتب مجلة « الشباب » .. يهز برأسه . ينعب بوقه في أحد المنحنيات . يدور بي من جديد في شوارع طويلة مضيئة .

انتهت أسطورة الغروب ، وها قد بدأ الليل يهب في الدروب كريح قاسية توقظ فراشات الأضواء . غداً ، في زاوية ما تضيء لوحة تحمل اسمي ، تغمز للعابرين أن تعالوا .. هنالك جسد ولد بيدين وعينين وساقين جميلتين ولكن بلا كرامة . حزمة أعشاب أحسن لفها . اني أكره نفسي .

يقف السائق . أهبط مسرعة . يصرخ بي : أين الأجرة يا .. ؟ وكانت عيناه تنطقان باتهام صريح،لكنني نسيت فعلاً . أقرر ذلك ببلادة كأنها إنسانة أخرى تلك التي أتحدث عنها . لا أشعر بأي خجل أو حرج . لقد متُّ حقاً . هذا رائع . يجب أن أكون قد انتهيت كي أسفح الجسد على الموائد مسترخياً ابله التعبير . واذا ما اكتشفت ذات ليلة ان عضواً من أعضائي لم يمت وانه أنقبض اشمئزازاً لما لسعته شفتا ثمل

فسوف .. آه .. لماذا أفكر هكذا .. انني ميتة .. لقد انتهى كل شيء . لم يبق إلا ان تنهار جدران القصر وتتبدى الغرف للجميع بكل ما فيها حقيرة قذرة مرعبة ، فتأتي مجلتك وتنسل تحت القصر العاري كبساط الريح ، ثم تحمله وتدور به من دار الى دار ليروا الدم الأزرق في وجه المرأة الأخرى ينتحب .. ينبخر ..

المصعد أمامي . لماذا لا يسمونه مهبطاً ؟ لم هذا التفاؤل كله؟ مصعد! وأضحك وأنا أغلق بابه . هذي النمرة التي نهشت الكلاب أولادها تخيفني حينما تضحك . يتوقف . أخرج . باب المكتب الفخم عريض ومفتوح . أدخل . لا بد ان هذي الحسناء سكرتيرتك . تتأملني بإمعان وأنا أقول : أريد أن أرى الأستاذ طارق لأمر هام .

— من أقول له ؟

— قولي له .. لا أحد .. أعني .. انه لا يعرفني ..

تحررني قليلاً من نظراتها المتفرسة . تدخل الى غرفتك . تغلق الباب وراءها .. أحاول أن أسترق النظر لأراك فأفشل . أتخيلك كما توحي لي شهرتك الكبيرة عجوزاً في الستين .

سوف تتأملني طويلاً من وراء نظاراتك السميكة حينما أدخل، وسوف تستمع إليّ باهتمام وأنا أتحدث طوال ساعات ، ولن تزيح نظراتك عني إلا لتبتلع بعض أقراص الدواء او لتخرج منديلك وتسعل فيه . هذه الشيخوخة أحبها لأنها شيء ناضج طالما وجدت في كلماتها الناضجة عزاء لي .

تخرج إليّ وبصوتها الناعم تقول : تفضلي وانتظري ..

وأجلس ، وأنا أتحرق لرؤيتك .

سوف أخبرك بكل شيء وأخصك بالخبر الذي سيهز مدينتي .

سأقول لك ببساطة انني أريد أن تكتب أنت قصتي . أنت وحدك قادر

على أن تفهمها ، وتفهم انني أريد أن أهين التفاحة الزرقاء بأن أنحط بها الى درك التفاحة الحمراء .

وستكون آخر رجل أصافحه ، وأنا أحمل اسمي : صفاء . وغداً أجد لي اسماً آخر وثوباً آخر ومساحيق كثيرة لن تعرفني خلالها .

جرس يقرع . تقول لي : «تفضلي» كم هي جميلة هذه السكرتيرة .

أتقدم ، أفتح بابك أيها الإله بلا خشوع . اني سعيدة لأنني فقدت ردود الفعل الطبيعية ازاء الأشياء التي أقدرها . بسرعة أدخل وأغلقه ورائي ، كأنني أخشى أن تتسرب منه الى الخارج ، وأجد نفسي من جديد وحيدة مع ضحكة النمرة . وأخيراً أهوي بنظراتي الى المنضدة ، والى ما وراء المنضدة ، اليك .. أجمد !

تنهض لترحب بي فيقرع الهاتف ولحسن حظي تلتفت اليه . أقف لأتأملك . أهذا هو أنت ؟ هل يمكن أن يكون هذا هو أنت ؟ أين الرجل العجوز ؟ ماذا أقول وهذه القامة منتصبة كمنارة ، وهاتان العينان تشعان دفئاً ونشاطاً وضياء كفجر ربيعي ، وهذه الرقبة ، لم تذل انتصابتها ربطة عنق ، فظلت بدائية ترتعش عروقها مع نبرات صوتك القوية التي تسكبها في الهاتف ..

صوتك ، عميق ومرح كمدافن الكنوز .. أين الرجل العجوز ؟ وهذا الصدر مشدود متين وهذي الشعيرات البيض في الفودين تهدهدان بخبثها كل طفولة .. طفولتي ماتت .. لماذا أرتعد ؟

أي شيء فيك يثير حنيني الى لذة بكاء ، دخاني أسفحه أمامك .. أبلل به الذراعين القويتين اللتين بدتا من القميص ذي الأكمام القصيرة .. وأشعر انني عاجزة عن أن أقول شيئاً ..

إنك تتحدث وتهز رأسك في ضجر بينما نظراتك تنقض ، تسلطها على وجهي فتحرجني كالأضواء الكشافة .. وأحاول أن أتذكر كيف أبدو في

المرآة لأعرف ماذا ترى . وأحس بأن نظراتك أصابع عجيبة تتحسس وجهي ورقبتي وتربت على شعري بحنان ثم تحملني من ملهى ليلي أمثل فيه بجثتي الى أمسية ربيعية تفوح من ترابها رائحة الشهوة وزهر الليمون ورائحة رجولتك .

يبدو من ايماءات وجهك ان حديثك الهاتفي قارب على الانتهاء . آه ماذا أقول لك . تراني أجرؤ على أن أحدثك بما فعلت البارحة ؟ تراني اجرؤ على أن استعيد ملامح الوجه الجامد المشلول في الأعلى ؟ الفجيعة الزرقاء في القلب الذي قتلت ؟ وهذا الحنان في وجهك ، هذا الحنان الذي تستحقه طالبة صغيرة مهذبة ، تراني أراه يتحول الى نظرة جدية خطيرة ؟

جرس آخر يقرع قبل أن تنهي مكالمتك الأولى . هاتف آخر الى جانب الأول . ترفع السماعة الثانية وتضعها على أذنك . أيها الرجل ذو الهاتفين : لم أكن أدري انك رائع هكذا . لم أكن أدري ان الخريف الحلو يقطن في الفود الأشيب وأن الرجولة لا تثمر إلا في ثنايا الوجه المتعب .. وجه رجل ذي هاتفين !

ينتهي حديث الهاتفين . الصوت العميق الغامض كمدافن الكنوز يوجه الكلام لي . يقول بطلاقة وألفة رائعة : « أهلاً بك .. أجل ، لا أعرفك ولكنني أستطيع أن أخمن من أنت » ..

تطوقني كلماتك . لا أجيب . تلحظ ارتباكي . تقول بمهارة : «اعتقد أنك طالبة جامعية .. هذا الوجه النظيف .. هذه البراءة في الملامح والبساطة في الثياب .. وطالبة مجدة أيضاً .. »

ووجدتني أضحك . ولم تضحك النمرة التي أكلت الكلاب أولادها . ورغم ذلك ضحكت بينما تابعت : « وجميلة جداً .. أجمل مما ينبغي لرجل مثلي أن يرى » ..

أحد الهاتفين يقرع . بحقد أهمس : « أكثر مما ينبغي لرجل ذي هاتفين» انك تتحدث : « أجل ! الملزمة الأولى وقعتها . قلت لك إبحث عن الكليشة الأخرى .. » ..

لن أنظر اليك . هذه الايحاءات التي تتفجر منك تحرك في الجثة أحزاناً دفينة وصدى نحيب متقطع في أقبية لا شمس فيها . سوف أقول لك حالما تنتهي من المخابرة الهاتفية ..

البارحة ، لما أغلقا الباب وراءهما بعد أن قالا اني قديسة ركضت الى ذلك المشلول في الغرفة العلوية وكان ما يزال يسبّح إلهه ، وانقضضت عليه ولا أدري ان كنت قد صرخت في وجهه ، ولكنني أمرته بأن يكف عن مناجاة إلهه وان ينهض ويأخذ زوجته من فراشي الى غرفتها او يموت .

ولم يقل شيئاً . لا أدري ان كان قد سمعني أم لا . ولكنني اليوم باكراً لما صعدت كعادتي لأفتح له النوافذ كي يبدأ من جديد صلاته وجدته متحجراً وصامتاً كعادته ، لكن أهدابه لم تكن لترتعش ، وكانت عيناه زرقاوين ، زرقاوين حتى لكأن السم الأزرق سرى فيهما وقتله .

لماذا لا تنتهي سريعاً لأقول لك كل شيء وأستريح !

الهاتف الثاني يقرع . تتحدث في السماعتين معاً .. وأنا لست طالبة مهذبة . انني امرأة بائسة . نظراتك عادت تحاصرني كالأضواء الكشافة . أغتبط وأنت تغلق الهاتفين فجأة . تهتف بحرارة وأنت تنهض بحيوية انسان يستطيع أن يحملني بين ذراعيه ويسير بي على الرمال ليلة كاملة : « يبدو ان الحديث هنا مستحيل .. وأنا لم أتناول غدائي بعد . هل تقبلين بأن نتناول وجبة لا اسم لها معاً ؟ » .. أصمت .. تستمر أنت : « حيث أسألك عن اسمك على الأقل ثم أعود الى مكتبي » .. لا أجيب !

كان هنالك إحساس عميق بدأ يسيطر على حواسي . هنالك شيء ينبض ، يتحرك ، يتململ ، يئن .. كانت هنالك امرأة ممزقة في قبر ما

تحاول ان ترفع حجر القبر عن صدرها بعد ان كادت تدفن نفسها حية .

لم تنتظر جوابي . لعلك أعتدت على طاعة من حولك لك . تفتح لي الباب . نخرج معاً .

« تجدينني في مكان سهرتي المعتاد » تهز السكرتيرة الحسناء رأسها ، وتتأملني من جديد كما تنظر المرأة الى المرأة . لذيذة هي نظرات حسد النساء الأخريات .

أزداد اقتراباً منك ونحن نخرج . جرس أحد هاتفيك يقرع من الداخل ولا أدري لماذا أرى شريطي هاتف طويلين يخرجان من أسفل باب مكتبك كالأفاعي الرقطاء ويزحفان نحو قدميك ليلتف كل منهما على إحدى ساقيك بأحكام حتى القدم ويجذبانك نحو الوراء ، ولكنك ما زلت الى جانبي .

وحيدان في المصعد . أرتجف كمراهقة كأني لست ميتـة ! وجودك لذيذ ومرهق كعالم مباهج لا تهدأ . يتوقف المصعد .. نغادره .. أحسني صغيرة وأنا أرفع رأسي الى وجهك والى قامتك الطويلة المنتصبة الى جانبي.

في سيارتك الكبيرة أجلس قريباً من أنفاسك . بيروت ، الغجرية التي تصارع السأم تضيء وتنطفيء .. دار ضخمة فخمة . دار حقيرة الى جانبها . تتهاوت الأصوات والأضواء ونحن نصعد في طريق جانبي . الضوضاء المتخثرة في جنون المدينة الملونة تموت على عتبة المكان الذي توقفنا أمامه . أرفع رأسي واقرأ : « شاليـه سويس » نهبط . يرحب بك رجل لا يهمني أن أنظر الى وجهه . يبدو انهم يعرفونك جيداً هنا .

يقودنا الى منضدة صغيرة . استرخي في مقعدي . ريح البحر تهـب ومعها أصداء غناء ملاحين يبحثون عن المجهول . بائسة . اني امرأة بلا مجهول .. بلا انتظار .. جثة جاءت تصلب نفسها ، تقطع الأيدي والأرجل وترشها مع الليل والحثالات ..

ترى لمن كان الرجل المشلول في الأعلى يرفع صلواته ؟ أحسهـا في ضمير الليل تبحث متلاحقة خائرة عن الإله الذي رفعت اليـه ، وأحسها

تمر أحياناً أمام عيني خائبة كالفيالق المهزومة ..
فلأبدأ .. فلأحدثك الآن .. لماذا لا أجرؤ ؟ الأموات لا يرهبون شيئاً . لماذا أنا خائفة ؟ عطشى . ابريق الماء أمامي . أمد يدي لأمسك بالقبضة . في الوقت نفسه تمتد يدك . تسقط يدي في حصار يدك . تلمسها كفك الكبيرة التي تستطيع أن تغطي وجهي كله . رعشة شهاب يحترق تستعر فجأة في جسدي كله . تشعل لفافة .
الدخان يتسرب من شفتيك مخموراً مترنحاً . اقترب قليلاً حتى تغمر غيمة الدخان وجهي ثم استنشقها ، امتصها بشراهة ، أتذوق فيها طعم شفتيك ! الثلج في قمم شاحبة نائية بدأ يذوب . أحس انسكابه الوخاز في هشيمي موقظاً ممزقاً كوداع الريح تعصف من جديد في البيدر ، لكن جثث شتول اقتلعتها أقدام دخيلة تغطي كل شيء ..
ويشدني صوتك عن البيدر ونواح الريح في القمم الشاحبة ..
– والآن ، حدثيني عن نفسك ..
أحدثك عن نفسي ! باختصار : أمي ... وزوجي ! بالتفصيل :
جئت لأقول لك انني جسد ميت مسخر للانتقام .. ولكن بقية من حياة ما زالت تحتضر في أعماقي تحت أكوام الرماد . وأنت أيها الغريب، ترغمني على أن أشعر بأني ما زلت أحيا .. من زمان ، كنت أقرأ لك، فأسمع في القبو حفيف أنفاس انسان . عجوز . هرم ، لا فرق . أي انسان .. وأحيا مع حروفك لحظات مقتضبة أدرك منها ان الجمرات ما زالت تحتضر ..
واليوم ، أواجه الأنفاس ، فإذا بها شابة حارة كالبهار ..
أيها الصيف الأسمر ، يا غريب ، ماذا في وجهك يهزني ؟ يزيح أكوام الرماد عن جمراتي .. فأحيا وأحيا وألف أحيا ..
الخادم يهرول : « سيدي ، يطلبونك على الهاتف » .
تنهض . أتأمل القامة الفارعة . أغص لأن شريطي/الهاتفين ما زالا

يشدانك بعيداً الى دوامة من سماعات الهاتف تضيع تحتها ..

لن أقول لنفسي انني أحببتك . لن أقول انني مغرمة بك . لا شيء . لا شيء سوى انك رجل . رجل حقيقي يهزني لأنني ما زلت أنثى وما زلت أحيا ..

كيف ، كيف أقول لك ما كنت قد عزمت على قوله ؟ وكيف أصنع ما كنت قد عزمت على صنعه ؟ كيف أوزع الجسد على الموائد مسترخياً أبله التعبير ما دام لم يمت !

ما ألذ ان تعود الى جانبي . صوتك العميق كمدافن الكنوز أسمعه من جديد : « والآن قولي لي ما اسمك قبل ان يقرع الهاتف الثاني » ..

لن أقول شيئاً . لم يعد هنالك اي مبرر لوجودي معك ، ما ابدع ان اكون معك .

— انا .. انا معجبة ..

لم أكن اكذب ، ولم اكن صادقة . فإنني قد جئتك لا لأنني معجبة ولكن لأنني ميتة .

— شرف كبير ان يعجب هذا الجمال الرائع بي .

وتتدفق الدماء في أعصابي فلا أحس إلا بحرارة الدم ووهجه .

ميتة ! وأضحك .

— تطربني ضحكتك أيتها الصغيرة الهاربة من الجامعة ..

وأضحك ..

لعلهما الآن يغلقان الباب . ذلك لم يعد يعنيني . ذلك المشلول في الأعلى مات . فليكن ، مات زوجها .. والمرأة في القبو ما زالت مشدودة على الأوتاد حيث تجلد ، لكنها ليست أنا .. من أنا ؟ لماذا لا أكون تلك الصغيرة الهاربة من الجامعة ؟

— ماذا بك ؟

أحلم .

ـ بماذا ؟
ـ بالهرب من الجامعة .
ـ معي ؟
ـ أجل ! اذا كنت تستطيع الهرب !
ـ أنا أهرب ! من ماذا ؟
ـ من الرجل ذي الهاتفين ...
ـ هل ضايقك هاتفي ؟
ـ هاتفاك ..

يعود الخادم مهرولاً . الهاتف طبعاً . تنهض . ينقبض صدري . أحس ان الأسلاك التي كانت تلتف على ساقيك تطول وتطول وتطوي جسدك بأكمله حتى لا يبدو منك شيء ، ويغيبك الباب بقعة سوداء كبيرة من الأسلاك والأصوات الهاربة من الأسلاك . بقعة من ضوضاء منظمة !

إذن ما زلت أحيا .. ماذا بعد ؟ لا شيء .. لن أكون ضفيرة الأعشاب المستسلمة .. سأتركها في القصر يسبحان في الدم الأزرق يستحيل أصفر أحمر أخضر نهراً من قاذورات .

سأكون كما ظننتني يا غريب . فلأبدأ من جديد . تأخرت أيها الرجل ذو الهاتفين . أهكذا تعيش ؟ ولكن ، لماذا انتظر ! ماذا انتظر ؟ فلأهرب .. فلأهرب بينما أنت تنوس بين هاتفيك ..

أقفز عن المقعد ملسوعة . انطلق راكضة في دروب العودة حيث يورق الليل والمجهول .. لم أعد امرأة بلا مجهول ..

ماذا ستقول حينما تعود وتجد مقعدي فارغاً ؟

ستقول : المعجبة الطفلة تأخرت فهربت .

وسوف تتناول طعامك بكل هدوء . لو انك تدري !

لكنك لن تدري ، لأننا إذا ما التقينا بعد أعوام ، فستجد وجهي نظيفاً كما أعجبك ، وجه طالبة هاربة من الجامعة .. ولن تدري أبداً .

هواية متعبة

وجهه أشبه بلوحة تجريدية .. شقان ضيقان ، وكتل من النتوءات ، وخطوط هوجاء منثورة بينها ، وأنف مرمي بإهمـال ، وفجوة ينبعث منها صوته المسيطر لكل مريض يدخل عيادته : تمدد على الأريكـة .. أجل .. هكذا .. استرخ ، سوف تحدثني عن كل شيء .

وكان هو يقبع وراء هذه اللوحة التجريدية والنظارة التي تمتطيها طيلة ساعات النهار . وكان يحس إحساساً عميقاً بالأعراض التي بدأت تنتابـه منذ أيام ..

يهمس لنفسه : « لا .. إنني لا أشعر بضيق في الصدر ، ولا بازدياد في ضربات القلب : ولا باختناق في الحلق وحاجة عميقة للبكاء .. لا .. لا ريب في انني واهم » !.

وقع أقدام على السلم : « إنها هي .. أنا واثق من أنها هي .. »

وتراقص خطوط اللوحة التجريدية في نشوة ، بينما يهمس بوقـار وبصوت تفوح منه رائحة الأدوية : ولماذا تكون هي ؟ في البنـاء نفسه طبيبان نفسيان غيري .. وعشرات المحامين والمهندسين .. وماذا ان كانت هي ؟ » .

يزداد وقع الأقدام على السلم .. تتراقص خطوط اللوحة التجريدية في نشوة ، انه يحس إحساساً مبهماً أكيداً بأنها هي .. لقد اعتاد على ان يقوم بتحليل كل إحساس من أحاسيسه وكل خلجة .. فإعجابه بالسيـدة

سلمى مرده الى عقدة اوديب ! وخوفه من العناكب يعود الى طفولته .. وغرامه بالفيران البيض له علاقة بشعر بنت الجيران البرصاء التي كان يلعب معها .. و ..

لكنه هذه المرة يقف أمام حالة مستعصية . حالة عجيبة لم يواجهها من قبل حينما كان مراهقاً يتبع فتيات المدرسة المجاورة لداره .. ولم يواجهها يوم حلل إحساسه نحو ابنة عمه وقرر انه يحبها بناء على الفقرات آ. ب. ل. من أعراض النوبات الهذيانية . وتزوجها بناء على هـــذه الحيثيات ، ولم يواجهها يوم ولد له توأمان .. فتاتان .. فحلـــل لنفسه أسباب ضيقه ، وقرر انها تعود الى رواسب نفسية وراثية حلزونية متدرنة ..

حالة عجيبة مستعصية هي تلك التي يواجهها اليوم !

الباب يقرع . تدخل الغرفة كفجر .. رائحتها تطرد أمامها حروفاً عتيقة تفوح منها روائح الأدوية. ترتعد اللوحة التجريدية ويهمس الكهف: « أهلاً وسهلاً » .. يغنج الصوت العجيب : « شكراً يا دكتور » .

ــ كيف أنت ؟

خيل اليه ان هذا السؤال انبعث من ردائه الطبي الأبيض ، من فتحة أكمامه او ياقته ، فهو لم يكن بحاجــة لأن يسألها : كيف أنت .. من الواضح انها تفيض صحة وحيوية وتماسكاً .. بل انه لا يستطيع ان يصدق ان هذا الوجه هو نفسه الذي واجهه منذ أشهر خجلاً ذابلاً كنجم مطفأ، بينما قالت صاحبته بانكسار :

ــ أنا سوسن .. أنتمي الى أسرة ..

لم يسمع بقية حديثها .. كان يتأمــل عينيها ... دوامتين من عويــل أخرس .. كان يتأمل خديها .. واحتين استباحهما أعرابي فـج .. كان يتأمل ملامح وجهها أطلال أحقاد حزينة .. لم يكن بحاجة الى أن يسمع بقية القصة .. لكن رداءه الطبي الأبيض قال لها بصوت جامد تفوح منه رائحة الأدوية :

– تمددي على الأريكة !

واستلقى الجسد الدقيق أمامه .. وأطبق الجفنان على دوامتي العويل .. وبدأت تتحدث .. غناء عرائس البحر الباكي يشع من صوتها .. عرائس البحر اللواتي قدن أشجع البحارة الأغريق من رفاق أوليس الى الهلاك .. وهو ملاح ضئيل تائه في بحار شاسعة . يحب أن يدعي القدرة على رسم مدارات الفلك ..

أشهر طويلة والوجه الذابل كالنجم المطفأ يطل .. والجسد يسترخي على الأريكة .. وغناء عرائس البحر الهامس الذي يشد الى أعماق البحر يشده الى موت مبهم ودمار ساحق محبب .. وتقول :

– أشكو من ضيق في الصدر وازدياد في ضربات القلب ، واختناق في الحلق ، مع حاجة عميقة الى البكاء .. انني أحبه !

إنه لا يصدق أنها هي التي تقف أمامه .. كتلة الحيوية والفتنة منصهرة رجراجة في الثوب السماوي .. كيف استحالت هكذا من قارة مهجورة الى آماد من الخصب والاكتناز ؟

لا يجد ما يقوله .. لا بأس في أن يرحب بها من جديد :

– أهلاً وسهلاً .. يسعدني أن أراك هكذا .. قلت منذ البداية أن كل شيء سينتهي بخير .. ما أخبارك الجديدة ؟

– الجديدة ؟ أجل .. ألم تنصحني بالبحث عن هواية أملأ بها حياتي بعد الفراغ الكبير الذي خلفته الصدمة ؟

– وهل وجدت شيئاً ؟

– أجل .. اكتشفت أنني أهوى ..

وسكتت قليلاً ..

– الخياطة ؟

– لا ..

– الرقص ؟

– لا ..
– الطبخ ؟
– لا ..
– البحث عن حبيب جديد ؟
– لا ..
– ماذا إذن ؟
– الأدب ! انني أكتب رواية .. وقد جئتك بهذا الشأن !
– وما دخلي أنا بالرواية ؟
– سألت إحدى الأديبات اللواتي سبقنني في الدرب عما يمكن ان أفعل.. فقالت لي ان أحسن اختيار ثيابي ، وان أستأجر طبيباً نفسياً خاصاً !
– والشق الثاني من النصيحة ؟
– ينطبق عليك أنت !

ماذا سوى « نعم » يجرؤ على ان يقول لها ؟! كان عليه ان يقول لها : « تمددي على الأريكة .. يبدو ان علينا ان نبدأ من جديد » كان عليه على الأقل ان يرشدها الى جاره الطبيب النفسي الكبير الذي كان استاذه في الجامعة .. الدكتور بديع العلي .. كان عليه ان يسخر منها على الأقل .. انها لا تحمل شهادة ابتدائية .. هل تريد ان تكتب بأظافر قدميها قبل ان يجف عنها الطلاء ؟ لكنه لم يقل سوى نعم .. لم يقل انه يرى منذ الآن كيف يمكن ان تكون روايتها .. كيف ستبدو من خلالها شرقية «بالبكيني» .. لم يقل لها لما صافحته سوى : « كما تشائين » .. ولم يجد لحالته تعليلاً .. اي تعليل .. انه لا يستطيع ان يفهم شيئاً .. أعماقه موبجات سود عجيبة ..

تخرج من العيادة وتمضي ، بينما تظل عاصفة العطر تعبث بردائه الأبيض . يطل من نافذة غرفته المرتفعة على القبو العميق الذي تركض فيه عشرات السيارات والمواكب البشرية .. يراها تصعد سيارتها بعد أن يفتح لها السائق

الباب .. وفجأة يفيض النـدى من شقين في أعلى اللوحة التجريدية .. يخلع رداءه كأنه يمزقه .. ماذا حدث ؟ لا يدري .. أعماقه خيطان دقيقة متشابكة لم يعد يجد لها أولاً ولا آخراً .. ماذا يصنع ؟

وتتجعد اللوحة التجريدية في نصر مهزوم .. لقد وجد الحل ..

يركض هارباً من عيادته نحو عيادة جاره .. يدفع الباب الذي كتبت عليه كلمات كبيرة .. « الدكتور بديع العلي » .. يتجاهل المرضى المنتظرين يركض نحو غرفـة الطبيب رأساً .. يجد استاذه الكبير واقفاً مع أحـد المرضى .. يتجاهله .. يمضي نحو الأريكة .. يتمدد والطبيب يرقبه برعب وذهول .. يهذي :

ـ فلنبدأ .. أشعر بضيق في الصدر وازدياد في ضربات القلب واختناق في الحلق .. مع حاجة عميقة الى البكاء !

لا بحر في بيروت

يسيران ، يدهــا الساذجة قابعة في كهف يده الكبيرة ، وجديلتهــا العريضة تهزج فوق ظهرها ، والشارع أمامها ما زال طويــلاً ينفتح في نهايته عند الأفق الوردي ، فإذا به والأفق شيء واحد . وهما يحسان أن الشارع لهما والأفق لهما وأن المدينة بأكملها ولدت يوم التقيـــا ، وسوف تختفي ، يبتلعها اخدود شيطاني إذا ما افترقا ..

دمشق ، مدينتهما الوديعة ، وقد استسلمت برعونة مثيرة لأصابع الصيف لتلونها وتزينها ، وتعبث بثياب حسانها ، فتقص كثيراً من أكمامها وفتحات صدرها ..

والحب ، هذا الطائر العجيب ، الذي اتخذ لنفسه عشاً في صدرهـــا الفتي لا يهدأ .. أبداً تخفق أجنحته . أبداً يغني ، يهذي ، يضرب بمنقاره ، يريد أن يأكل كل ما في أعماقها كي لا يبقى سواه . كي تصير لا شيء سوى عش كبير له . وهي تقاوم وتتمرد . لن تسمح له بالتسلل الى رأسها الصغير. تريد ان تحافظ على أشيائها الأخرى الكثيرة ، ارادتها ، عقلها، وما يشغل هذا العقل الساذج المتفتح والعالم الرائع الذي لا تريد لنفسها ان تراه من زاوية واحدة خلال عيني أيمن ، او الزاوية التي يحددها هو لها ..

انها تريد منذ خرجت من مدرسة الراهبات ان تحتفظ لنفسهـا بعينيها ووجهات نظرها . لا .. لن تسمح للطير النهم بالسيطرة عليها. لن تكون مجرد جوف يردد أصداء العصفور الشره .

وهذا الاحساس بالذات جعلها تنسى المقدمات التي كانت قد أعدتها لمفاجأتها وجعلها تهتف فجأة : ايمن ..

– ماذا .. حبيبتي ؟

– قررت ان أسافر !

– ماذا ؟

– قررت ان أسافر

– الى أين ؟

– الى بيروت .

– لماذا ؟ (وكانت «لماذا» تقطر مرارة ودهشة)

– لأزور أختي ، والبحر ، ولأتسجل في الجامعة هناك .

– في الجامعة ؟ كفي عن هذا الهراء ودعينا نتزوج ..

– لا .. أريد ان أتمم دراستي الجامعية . وفي بيروت بالذات كي أكون بعيدة عنك .. ألا ترى انني الآن شيء هلامي يبحث عن نفسه ؟ وبماذا أحبك اذا ضيعت نفسي فيك وكنت بلا شخصية ..

– هذه الكتب اللعينة التي تدمنين قراءتها ..

– آسفة لمقاطعتك . لا داعي للشجار لأنني أحبك حقاً ولكن،ما هذا بكل شيء .

– ولكن ، أنت لا تعرفين بيروت .. انها .

– لقد درست أنت فيها ، وأحب ان أعيش في الجو الذي عايشته .. سأكون أكثر قدرة على معرفتك وفهمك ..

– ولكنك ستصدمين بالجو هناك بعد ما ظللت طوال عشرة أعوام في مدرسة راهبات داخلية .

– لماذا تخيفني من العالم وتريد ان تجعل من زواجنا هرباً لي ؟ هل سأظل الى الأبد أهرب مما أخافك ؟ هل ستكافح لتتحول لي دارنا الى مدرسة راهبات جديدة وتدعي لنفسك ولي انك تفعل ذلك من أجلي ؟

– هذه الجديلة التي صنعتها الراهبات لك في عشر سنوات لا تصلح للعالم ولبيروت ..

أجابت في عناد دون تفكير : سأقطعها ..

– والجديلة الأخرى في أعماقك ؟

– سأقتلعها وأقطعها أيضاً ..

– ولماذا يحدث هذا في بيروت بالذات ؟

– لأن فيها البحر .. البحر القديم الذي ليس ديراً كبيراً ولا امرأة مزيفة .. البحر المليء بالحب والتجدد والتنوع والضياء .. انه عالمي الكبير الذي قرأت عنه دون ان أعايشه .. الفردوس المفقود لروسو ودانتي و ..

– كفاك هراء ..

كأنها تحلم لا تسمعه .!! تسترسل ... بحر أزرق لا ينتهي لكل منا نصيب فيه .. زرقته حضارة السماء ، وطيوره البيض وديعة النظرات كالجيران الطيبين . والأجيال التي تنبت من رماله سعيدة لأن الرجال توقفوا عن وأد حبيباتهن فيها .. و .. وأشياء أخرى كثيرة لا أعرفها بعد لأنني لم أخرج الى العالم ولكنني أحس أنها موجودة ..

عيناه تتأملانها بغموض كاهن أناني شرير تتكشف له الحجب عن نبوءات مرعبة .. يهتف غاضباً : هذا البحر الذي تتحدثين عنه مات منذ زمن بعيد .. ان كان هذا بحرك فأعلمي يا صغيرتي ان لا بحر في بيروت ..

– ماذا ؟

– لا بحر في بيروت .

ماذا يعني ؟ لماذا يضايقها ؟ يستيقظ عنادها الذي لم تفلح الراهبات في تفتيته . الطير في صدرها يقاوم ، ينقرها ، يحاول أن يمنعها . لن تتراجع ..

تشعر بشيء من الحقـــد الغامض على أيمن ، تحسه كجندي فرّ من المعركة وهو الآن يحاول منع كل ذاهب ليخوضها .. تعقب هذه اللحظة المحنكة التي لا تطول دقـــائق وخازة من تأنيب الضمير .. إنه ايمن .. ايمن الذي حلفت أن اكون له وكنت صادقة لما فعلت ذاك .. سأكون لطيفة على الأقل ..

— أيمن .. سأرحل غداً صباحاً .. ماذا أحضر لك معي ؟

لم يجب . كان يعرف معنى البريق الجريء الذي اتقدت به عيناها ..

— أيمن ، قل لي ، ماذا تريد ؟ ربطات عنق أم ..

يقاطعها يبطء فدائي يحيك مؤامرة : أريد قليلاً من مـــاء البحر .. لا شيء سوى قليل من ماء البحر الذي تحبين .. إذا وجدته ..

— ولكن أطلب شيئاً آخر ... شيئاً صعب التحقيق .. شيئاً له قيمة ..

يقول وكأنه عزم عـــلى أمر خطير : أريد قليلاً من ماء البحر في بيروت . هذا طلبي الوحيد ...

* * *

قليلاً من ماء البحر ..

وتضحك عيناها في جذل . أيمن يحب أن يداعبها دائمـــاً . يعرف ولعها بالثياب الجميلة ويعرف انها ستستهلك كل ما معها من نقود منـــذ اليوم الأول ، ولن يبقى في جعبتها قرش واحد ثمناً لهدية له .. « هذا هو السبب في انه طلب قليلاً من ماء البحر ... يا لها من هدية رخيصة مضحكة » !

وكادت عيناها تضحكان من جديد في جذل بينما هي تعد حقيبتهـــا الصغيرة قبل أن تنام .. لكنها تذكرت ان عيني أيمن كانتا تشبهان عيني كاهن مرتاع لما طلب منها ذلك . وبدأت تحس في فمها وخز الطُعْم ، لكنها ترفض ان تصدق ..

(فليكن .. سوف ألبي رغبته على أية حال) ...

زجاجة العطر الفاخرة التي كان قد أهداها اياها منذ أشهر ما زالت جديدة كأنها لم تمس . كأن العطر تبخر منها بطريقة ما دون ان تفتح . كانت على عادة العاشقات المراهقات تعنى بها وتحتفظ بها جديدة كأنها لم تستهلك ..

سوف تملأ له الزجاجة الغالية بماء البحر ، ما دامت هذه رغبته ، فستحققها رغم ما فيها من غرابة وغموض .

* * *

بيروت .....

وتراها من بعيد بينما السيارة تنحدر نحوها .. بيروت جنية اسطورية تنفث الضباب نحو الجبال .. تتعرى من غلالاتها . تنبسط مغرية مثيرة غامضة العري .. تكاد تسمع لشوارعها نبضاً يشبه نبضات القلب الحي .. لكأن في الاسفلت ، في الأزقة الغامضة ، في البيوت المتدثرة بأسرارها وهجاً وحرارة وحياة كما في خدي طفل متورد تفوح من فمه رائحة اللبن والشبع والضحك ..

(لماذا أرتعد هكذا ؟ لماذا تثيرني رائحة الحياة ؟) ..

وتقترب السيارة من بيروت . (اني خائفة ، أحس بالإثم ولا أدري لماذا .. عن اي شيء جئت أبحث ؟)

البحر يطل من بعيد هادئاً وعملاقاً كشاب عريض الصدر مفتوح الذراعين ينتظرها .. بإحساس يشبه لذة خيانة مبررة تتأمله .. تتسارع أنفاسها .

جارها في السيارة بدأ باختلاس النظرات اليها (لم ينظر إلي طوال الطريق .. كيف أدرك اني استحلت أمام هذا المشهد الى أنثى حقيقية ؟ بي نشوة عانس تزف الى حبيب غامض) ..

خيوط الشمس تنكب على بيروت بنهم (اني أعبد شموس الأرض كلها .. أؤمن بأن لكل مدينة شمساً مستقلة ، وسوف أكتشفها جميعاً .. هذه السلسلة اللامتناهية من الكهوف الملتهبة سوف أزورها جميعاً) ...

الطائر الصغير الذي اتخذ لنفسه من صدرها عشاً ينقرها بنزق .

***

أختها صارت شيئاً آخر .. كيف ، ولماذا ؟ لا تدري . لقد استطاعت ان تتبين ذلك منذ الوهلة الأولى بطريقة غامضة ..

قبلتها لما استقبلتها منذ دقائق كانت فاترة وسمجة كقدم دجاجة . اهتمام أختها كله كان منصباً على طريقتها في زم شفتيها .

الدار رائعة . وكل جدار فيها بني خصيصاً من أجل اللوحات الثمينة التي تزينه .

ــ ماذا تحبين أن تري في بيروت ؟

لكنها لم تسمع . كانت تبحث عن عيني اختها الضالتين في آبار من الكحل .

ــ ماذا تحبين أن تري في بيروت ؟ ما بالك شاردة ؟

ــ أريد أن أرى البحر ..

ــ حسناً . سوف نسهر الليلة في مكان يطل على البحر .

تنعشها الفكرة . تنهض الى الغرفة الفاخرة المعدة للضيوف تغسل وجهها. الفقاعات تغطيه ، وهي ترى بعينيها المغمضتين البحر ، بحرها الحبيب ، وترى أشباح السفن التي رحلت طوال دهور تعود محملة بوجوه تشع بالحب والتجدد والتنوع والصفاء والعمق والشباب الدائم ، وأصوات المجاديف تختلط بغناء نسوة محلولات الشعر وقفن في الرتل البشري الكبير ينشدن سعيدات بعودة آلهة الأرض القديمة الطيبة ..

تغسل الصابون عن وجهها . تحس بالماء البارد ينعشها . ترى انها

تدس بوجهها في جذور الموج ، تحشره بين صخرتين من صخور الأعماق لتتأمل صفاء الأعماق وأسماكها الشفافــة ... انها تعبد الصفاء والحقيقــة الشفافة ...

* * *

الأضواء باهتة . الحلي الماسية عبثاً تسفح بريقها في العيون المطفأة ... اختها ذات الجسد الضئيل تنوء تحت ثقل العقد الضخم الذي يعضّ رقبتها.

الفرقة الموسيقية ما زالت تعزف وهي تتسلق اللحن الصاخب الى وجوه العازفين ، فتسمع وراء اللحن نحيب مسامها مفجعاً متعباً .. (هل يجب أن يتمزقوا هكذا كي يقوموا على تسليتنا ؟) . الخادم ينحني أمامهــا ويقدم لها الطبق الكبير (أشعر بالخجل حينما يقوم عدد كبيـر من الناس على خدمتي) ...

المكان لحن (جاز) متنافر الصرخات والزعقات ، لكنه بمجموعــه يشكل وحدة متماسكة من حيث التكلف والصنعة .. (أنا النغمـة الناشزة الحزينة الباحثة عن إيقاع .. ضفيرتي وحدها كافية لإيجاد النشاز) ...

تخفت الأنوار فجأة . ينسكب شلال نور شاحب على وجه غانيــة محلولة الشعر ، تغني بلغة لا تعرفها انشودة مثقلة باللوعة والترقب ، كأنها شهقة ذعر في موكب يبحث عن البحر ويكتشف ان البحر قد مات ، قد جف ، وان الشراع الأبيض اسطورة .. (اني أنا هذه المرأة الضالة الباحثة عن البحر القديم بينما رماح النور الشاحبة تدقها على شاشة العيـون اللاهية) ..

أختها الجالسة الى جانبهــا تنحني عليها وتهمس : هذا أرقى مكان للسهر في بيروت .. هل أنت سعيدة ؟

ببؤس حقيقي تجيب : سعيدة جداً ...

تسقط نظراتها على وجه يدخل المكان . وجه مضيء يعوم في الظلمة

كأن لا جسد له . وجه قوي معبِّر يقترب من المكان الذي جلسوا فيه . يحتل المائدة المجاورة الفارغة . تهمس أختها : هذا أديب غريب الأطوار اسمه سلمان عزمي .. انه شاعر كبير يظهر أحياناً في مجتمعنا (الراقي) ثم يختفي مدة طويلة غير آبه لقواعد الذوق ، الكننا جميعاً نحب مجلسه .. سوف أدعوه يوم أقيم الحفلة الساهرة تكريماً لك ...

تختلس النظرات اليه .. انه رائع ، حزين مثلي ، كأنه شهد مصرع بحر ما ... ولما أراد العودة الى الشطآن العالية اكتشف ان بحره اختفى، ولما سأل عنه قال له أحدهم: البحر قد قتل .. دهسته حافلة في الشارع.

قال الآخر : البحر قد فرغ . عبأناه في زجاجات الويسكي .

قال آخر : البحر هرب . لاحقته راقصة من معابد التويست ذات المصاعد الكهربائية وأرادت أن ترمي نفسها في أحضانه،فخشي على أصالة لونه من التغير الهجين .. وهرب ..

ترى لو هرب البحر الى دمشق ، أكان يمكث فيها طويلاً ؟

نظرات سلمان تتأمل جديلتها وقتاً طويلاً قبل أن تلتفت الى سرب الراقصات الذي تدفق فجأة . (ما معنى تشاؤمي هذا كله ؟ غداً ، بعد غد أرى البحر بالطريقة التي أريدها . أختي لم تفهمني ، لقد حاولت تكريمي حينما جاءت بي الى هذه العلبة المطلة على البحر .. انها لا تدري اني أريد ان أرى البحر بطريقتي الخاصة .. أن ألمسه ، أتحسسه ، أتأكد من انه موجود ...

انها لا تعرف ان جنوني قد بدأ منذ تجمعت وجوه شامتة ساخرة في عيني أيمن وهو يقول :

– اذا كان هذا بحرك ... فلا بحر في بيروت....

* * *

عشرة ايام في بيروت !

يوم واحد طويل توالت فيه الأجزاء المضيئة والمظلمة ، وناست شمسه عند الأفق عشر مرات من كبد السماء حتى كبد البحر .. هكـــذا جيئة وذهاباً دون أي مدلول .

أختها تلازمها ، تفرض عليها تدليلها المرعب ، وهي غريبة ، كأنها في وليمة فخمة ، لكن الأطعمة كلها اصطناعية .. بلا نبض .. بلا عبير..

والجميع يأكلون ، والجميـــع يشمون الزهور الاصطناعية ثم يمتدحون العبير .. أما هي ففي تركيبها خطأ ما .. ما زالت غريبة ، ووجه أختها يفقد في كل يوم أحد أبعاده ، وكل شيء يلوح مزيفاً وغير حقيقي .

البحر رأته كثيراً ، رأته من بعيد ، من شرفات المقاصف التي ذهبوا اليها ، وكان دائماً ذليلاً مستسلماً للذعات شمس آب ، ولم تر فيـه أبداً سمكة تقفز ولا موجة تهزج ، ولم تسمع صوت المجاديف والأغاني .

بدأت تشك في ان البحر حقيقي هنا .. يخيل اليها انه لوحـة رمادية مدقوقة على الأفق .. لوحة صلدة .. وانها لو وصلت مـــرة الى المدعو بالبحر في بيروت لاستطاعت السير عليه .. انه تتمة لاسفلت الشارع اهتم الخبراء بجعل لونه أكثر زرقة .. هذا كل ما في الأمر !

أختهـــا خلقت لنفسهـا مدينة لا بحر فيهـــا ! وهي اليوم تحاول أن تعودها إياها . لماذا لا ترحل ؟ (لن أهرب . بحاسة الخيول الوحشيـــة أشم رائحة الماء ... البحر لا بد من أن يكون في مكان ما ..)

* * *

هذا يومها الأخير !

هكذا ظلت تواعد نفسها منذ أيام ، لكنها تظل في بيروت . كـأنما في أحجارها وشوارعها قوة سحرية كقوة الميدوزا .. قوة حجرتهـــا ، صلبتها على عمود في وسط المدينة وعيناها موجهتان نحـــو البحر دون أن تستطيع بكاءً أو حراكاً . والمنارة في مكان ما تغمز بسخرية كأنها وحدها تعرف كل شيء .. (لماذا لا أرحل ؟) .. لا تدري ...

لا تريد أن تغـامر فتذهب الى البحر وتكشف انه امتداد لأسفلت الشارع ولا تريد أن تعود دون أن تملأ الزجاجة بماء البحر فيسخر منها ايمن : أما قلت لك أن لا بحر في بيروت ! ولكنهـا ليست بائسة .. انها سعيدة بطريقة ما .. تحس ان في بيروت قوة من نوع خاص تعري الانسان وتكشف له حقيقته .. وإذا كان البحر مات حقيقة فلا بـد من أن تلقى جيلاً حزيناً ثائراً يكافح كي يبعث البحر ..

بيروت ! انها مدينة ملطخة بالأصباغ لكنها ليست مزيفة،لأن الأصباغ صارت جلد العالم !

سوف تسأل سلمان الشاعر الغريب عن البحر .. لماذا سلمان بالذات ؟ لأن وجهه المضيء كان يعوم في الظلمة لما رأته كوجه نبي .. ولأنه كان ثائر الحزن كأنه وحده شهد مصرع البحر ..

***

(ليلة جديدة ، وأنا هنا ..

لقد امتصتني المدينة الاخطبوط .. شوارعها الضيقة الحزينة انغرست في أعماقي كالأذرع الجائعة ، وتدفقت أنا الى جوفها الذي لا يمتلىء مائعـاً نارياً هامداً .. وإذا أنـا اختلط بالصرخات والأضواء الشاحبة والخدود الذابلة .. وإذا أنا من بعض النسغ الغامض الحار الذي ينبض في كـل مكان ..

اني من رعايا مدينة الورق المقوى والطبول ، نقطة دم مخثرة في قلب بيروت ألوب وأتلوى بشراسة ..

حياة أختي صارت حياتي ، صارت أنا .. لكنها راضية .. أمـا أنا فراضية لأنني أريد أن أبقى هنا ... أسمع أصواتاً أخرى خفية في بيروت.. كأصوات الأنهار الباطنية .. تحت بيروت الورق المقوى ورعاياهـا ، لا بد من أن تكون هناك بيروت أخرى لها رعاياها ... اسمع هدير أنهـار

عميقة الجذور ، غزيرة وغنية كالبحار القديمة . من أجلها وحدها أبقى هكذا ضالة ممزقة ... من أجلها أظل هنا في المذبح الوحشي حارة الدماء كضحية راضية .. الآن عرفت كيف يتورد وجه ببروت الشيطاني الطفل، وكيف تفوح من فمها رائحة الشبع والدفء .

ما زلت أرقب الأشياء من بعيد رغم انها تجذبني .. هذا العالم التافه أنتمي اليه بضعفي ، ولكن ... ما زال هناك شيء آخر .

لم أسقط بعد ولكنني أريد أن أعرف الحقيقة) .....

***

لما وقفت أمام المرآة ، بحثت طويلاً عن عينيها حتى وجدتهما غارقتين في بثرين من الكحل . أحست ان قبلة شفتين كهاتين لا بد وان تكون فاترة وجامدة كقدم دجاجة .

هذا البحر السمج اعتادته هكذا . لو انه يثور مرة ، يرمي بالموج، يثره من بعيد حتى هنا .. على وجهها ... لو انها تلمس ماء البحر بيديها .. ماء ثرياً صافياً ، ينفك الطلسم ويبطل سحر الميدوزا ويذوب الحجر الذي استحالت اليه لتعود هي هي ... ولكن ...

***

(الليلة حفلة ...

وهذي الجديلة على ظهري ثقيلة كحمل كبير .. كأنها طفولتي كلها أحملها على ظهري .. والنساء الملونات يرقبنها بتأفف وضجر ،كأنها تنحشر في حلوقهن أو تزكم أنوفهن .

انطلق في الشارع بحثاً عن رجل جزار أصابعه مقص حاد .. سوف أقص جديلتي لأنني لم أجد البحر .. والعالم الذي كنت أحيا من أجله مات منذ زمن بعيد ، والمدينة التي أتحرك فيها ، مدينة أختي ، ما زلت غريبة عنها . أتحسسها من وراء أسوارها الزجاجية المخيفة ، أدور حولها ..

اني هجينة ، والليلة أزف الى بيروت أختي وأيمن ، وسوف أواجه بلاهتها بجرأة .. يجب أن أنتمي الى شيء ما .. الى أي شيء) ....

تقرأ اللوحة الكبيرة قبل أن تدفع الباب وتدخل . يرقبها الحلاق باشمئزاز متعجرف . ألم تخجل من السير في الشارع بهذه الجديلة ؟

الطائر الذي يقطن صدرها يتململ كأنه يحتضر .

تجلس في مقعد الحراف . تمد يدها تتحسس الجديلة بحنان كبير ، كأنها جثة طفلها الأول .

لن تدمع عيناها . خير للأطفال المشوهين أن يموتوا ، أن تحملهم أمهم الى الجزار ...

(لن أهرب من الحقيقة . أنا التي اخترت ان أرى وان أعرف .. وبيروت هي دمشق وهي باريس وهي لندن وهي نفوسنا .. لا مفر) .

أصابع الجزار تغرق في الليل الأسود .. تمزقه .. تنهار الخصلات مع حركاته المفتعلة وهو يدور حولها كالوحش ويدوس أكداس الشعر .. ويظل يعمل .

اللحظات تمر والطير في أعماقها يحتضر ويهذي وريشه يتناثر ويتناثر من فمها وعينيها ويختلط بشعرها المجزور المتناثر ويستقر معه على الأرض ...

الحلاق يضحك ويهتف : كنت تشبهين نساء القرن التاسع عشر ... انظري الآن كم أصبحت جميلة !

كانت سيارة أختها الفاخرة تنتظرها أمام الباب لما خرجت . ارتمت فيها وأحست لأول مرة بأن السيارة تلائمها . صارت مساندها أكثر التصاقاً بساعديها وأكثر حناناً وتجاوباً .

تحس براحة دامعة مؤلمة . راحة المرأة بعد الوضع . ألم امرأة وضعت طفلاً ميتاً ! سوف تكون أكثر التصاقاً ببيروت أختها .. بتخديرها وأوحالها .. سوف تظل هنا حتى تجد بيروت البحر ..

الوجه الثاني لبيروت الذي تحس انه لا بد وان يوجد ... حتّى تتسرب بطريقة ما الى ذلك النهر النقي الذي تسمعه يهـــدر تحت الأرض وتحت الأوحال ..

لن تعود الى أيمن خائبة بزجاجة فارغة أو مليئة بماء وملح فقــط .. سوف تثبت لأيمن أن في بيروت بحراً .. في كـل إنسان بحراً .. والمرأة أيضاً ، من حقها أن تجد بحرها لتجد نفسها ..

***

الى بجانب أختها تسير بالشعر المصفف والثوب الضيق ، كأنها لم تقض عشرة أعوام في مدرسة داخلية أشبه بالدير .

تدخلان الملهى الضخم . هذا العالم الذي تعيشه مع أختها تحس انهـــا تحبه وتخشاه ... (أيام وأيام ... لا جديد . اني خائبــة ، فاشلة ، لا أدري كيف أبدأ . لا أدري كيف أعود . لقد قصصت جديلتي . جعلتها جواز مرور الى أسوار مدينـــة السراب ، قلت لنفسي سوف أحفر في الرمل حيث السراب فقد أجد الماء لكني أزداد ضياعاً . أكاد اتخدر قبل أن أجد شيئاً . بدأت أخاف نفسي . الغرور الذي يدغدغ عنقي ، هذه العقارب السود التي بدأت تزحف نحو العصفور الغريد في صدري وتحاصره. اني بطريقة ما انتمي الى هذا العالم البائس .. هــذه الأفراح المختلسة ، هذه الدنان المحرمة هي أرض المهجر . وهذه المرأة التي تنتحب في ركن المكان وتدعي انها تغني ، أولئك الراقصون يرتعدون ويجسدون في هلعهم حكاية الجنس والوحشة والقلق والأفق التابوت ... وأنا أكاد أجدني جزءاً من رعب النمو السرطاني والانسحاق الممزق . لن أستطيع الهرب فساحلي مات منذ عصور بعيدة . قضيتي هي أن أعيش في مدينة السراب كأهلها.. ليتني أظل أواجه الأشياء دون أن تتسطح ملامحي وتخسر أبعادها) ...

— هل تسمحين بهذه الرقصة ؟

ـ أجل .

تنهض تستسلم للداعي الغريب .. لماذا لا ترقص ؟ (ان العالم قد تغير ونحن الذين ننتمي الى قرن مات ، نحن الذين نحمل قيماً بادت ، علينا أن نتخلى عن رمح دون كيشوت ، وعلينا أن نتعلم كيف نجامل ونكذب ونكره ونراقص رجلاً بينما نحلم بأننا بين ذراعي آخر) ...

يغيرون المعزوفة فجأة . لحن التويست الفاجر ينبثق في العيون كأضواء بلا لهب . ترقص بجنون كأنها تنتحب (البحر الاسفلتي الجديد بحاجة الى بشر من نوع جديد .. يتعايشون مع صخوره ذات الطوابق المتعددة والمصاعد الكهربائية . ورماله الاسفلتية التي انغرست في جسدها رماحاً طويلة تتدحرج عليها حافلات متخمة بالناس والعرق والملل) ...

شاب بثياب الاستحمام يعبر الشرفة حيث الراقصون ، متلصلصاً ملتصقاً بالجدران ، وحبيبات الماء ما زالت تغطي جسده الرياضي . (يبدو انه من هواة السباحة في الليل) .. تلفت نظرها حبيبات الماء العالقة بجسده.. أهي ماء حقاً ؟ تساورها رغبة وحشية بالركض وراءه وتحسس الماء على جسده ، وتمريغ وجهها في عضلاته لتتأكد من انها ماء حقاً ...

يختفي الشاب قبل أن تفعل شيئاً ..

تعود الى التويست ، يعول المغني بشراسة : تويست تويست .

ويضيع الجميع ...

* * *

وسهرة جديدة ...

الأنغام تتسلل الى غرفتها من البهو الفاخر . وهي قد انتهت من ارتداء ثيابها . تدخل أختها : اسرعي فقد جاء المدعوون جميعاً. كلهم في شوق الى رؤيتك .

ـ سألحق بك بعد قليل .

— اسرعي ، سألني عنك سلمان عزمي منذ لحظات .. قال أين ذات الضفائر ؟

— سلمان عزمي ؟

— أجل هل تذكرته .. انه الشاعر الذي ..

— أجل تذكرته . شكراً .

لم تنس وجهه المضيء الذي كان يعوم في الظلمة كوجه نبي . تخرج أختها . تمد يدها الى حقيبتها بحثاً عن قرطيها . تصطدم يدها بزجاجة العطر الفارغة التي كانت قد أحضرتها معها لتملأها من ماء البحر. تلسعها برودة الزجاج كأن الزجاجة معبأة بألف شتاء .. تتحاشى النظر اليها ، تخافها . لن تعود الى دمشق ما دامت هذة الزجاجة فارغة ... سوف تملأها من البحر ومن بحرها هي ، لا من بحر أختها ...

لكن بحرها مات ، وهي لن تعود ، سوف تنتصر على الهزيمة بأن تحبها .. سوف تحب بحر أختها !

تهبط الى القاعة . كلهم يلعقها بنظراته . انها قبلة الأنظار . سلمان يتجه نحو المكان الذي وقفت فيه وحلقة من الشبان النحل تحوم حولها . كانت تبحث عنه ، بطريقة ما تحس ان أمامها كلمات كثيرة لم تقل .

الوجه المضيء يعوم في الظلمة الحمراء كوجه نبي. تنسحب من الحلقة وتتجه نحوه . قريب منها كإله . ترفع اليه وجهها بوداعة . ترى كيف سيبدأ التعارف ؟ تراهما يلتقيان كالغرباء .. كالناس جميعاً .. يهمس كأنهما صديقان منذ زمن بعيد : أين ضفيرتك ؟

شيء عجيب في عينيه ، شيء مطمئن في اتساع صدره ، شيء سريع الفهم في ملامحه القوية ، كالوشم الخفي في ابتسامته المحببة ، لا تدري أي شيء جعلها تجيب ببساطة كأنها عرفته واطمأنت اليه منذ زمن بعيد ، معرفة غامضة كالتي تربطها بأبطال الروايات التي تحب ...

– ضفيرتي ؟ هل يهمك حقاً أن تعرف ؟
– أجل ! لماذا تخلصت منها ؟
– لأن البحر مات !

* * *

لم يكن المكان فاخراً ، ولكنه كان يعبق بالروائح الانسانية .. بالحزن والعرق والخبز ، بالتعب والشحوب والتحفز ..

ترتمي على مقعدها متعبة ، ويرتمي سلمان الى جانبها ..

– كانت جولة رائعة .. لقد وجدت الوجه الآخر لبيروت .. الوجه ذا الابعاد .. الدرب الى البحر ..

تلتهم الموسيقى الصاخبة بقية كلماتها .. يدخل من الباب شاب طويل له ذقن محببة تغطي نصف وجهه ، وسمراء حلوة تستند اليه ..

– هذا أديب كبير ، وتلك صديقته تكتب القصة ... انهما يعيشان بحثاً عن قضية .. حزن رهيب يلاحقهما ، انهما حزينان لأنهما لم يعرفا البحر ، ولأنهما لايعرفان انه سبب حزنهما ...

أنت على الأقل .. تعرفين .. لقد احترقت في أسابيع كما لم يحترقا في سنوات .. لا تسمعه . عيناها معلقتان بيده التي تناول بها لفافة «كنت» وانتزع (الفيلتر) منها وألصق شفتيه باللفافة العارية .. تنظر اليه متسائلة..

– انني أكره الحواجز التي تفصل بيني وبين الأشياء .. أريدها كما هي ، مرة ، حقيقية ، لاذعة ...

– لماذا تبتاع إذن لفافاتك من نوع (الكنت) ...
– من أجل الآخرين والأصدقاء ...
– أما زالو يهمونك ؟

– أجل ! كلهم أنا .. أكره المتقعرين الذين يتخذون من ثقافتهم ذريعة للتخلي عن الروابط التي تشدهم الى الآخرين .. رغم انهم يعيشون

معهم .. يستمدون منهم الاعجاب أو الاهتمام .. أو حتى الكراهيــة .. انني أبداً أنوس بين الأنا المفردة وبينهم فأهرب ، ثم أعود الى الآخرين لأحب وأحب وأحب ..

يمسك بكأسه ويرمي بمحتوياتها في جوفه ...

– ألا تسكر أحياناً .. وتنسى ؟

– أبداً..أنا من جيل لم تعد المسكرات لتخدر ضميره .. أضحى الاهتراء أقوى من أي مخدر..اننا على مفترق الطرق وألف قوة تشدنا الى ألف جهة.. ما نقرأه .. ما اعتدنا عليه .. ما نفكر به .. ما نمارسه بحكم العادة .. الآخرون .. نحن . العالم الكبير . والبحر الذي يجب أن لا يموت ..

– ولكنه مات .

– لم يمت . ابحثي عنه ، واملأي الزجاجة لصديقك أيمن . ساهمي معه في إنعاش الموج الخامد .

– انه يعتقد ان لا حق لي إلا برؤية ما يريد لي أن أراه .. سوف أبقى معك !

نظراته الغامضة الدافئة تحنو على تشردها .. تلملمها من الليـــالي التي تشتتت فيها .. يشدها من يدها الى حيث يرقصون ..

تدفن رأسها في الصدر العريض وتستنشق رائحة المشيم والدخان والحزن، وعبير أعوامه الأربعين .. ما أحلى رجولة الأربعين !

***

يسيران ، ويدها التي لم تعد ساذجة مستكينة في كهف يده الكبيرة . ولم يعد على ظهرها جديلة تهزج،ولم يعد في صدرها طائر أهوج يصفق ، والأزقة الضيقة لا أفق فيها ...

– سلمان ..

– ماذا حبيبتي ؟

– قررت أن أسافر
– ماذا ؟
– أن أسافر ..
– الى أين ؟
– الى دمشق .
– لماذا ؟

وكانت لماذا تقطر مرارة ودهشة ..

– لأخبر أيمن بما حدث .. بصراحة وصدق .. سأخبره بأنني وجدت البحر معك ..

– هذا غير صحيح .. لم تجدي البحر بعد ..

– سأجده .. أرجو ذلك ...

– اذا وجدته ، قولي لأيمن بأنك ستشاركين في إحبائه .. ستضمين اليه موجة جديدة ..

– سوف يسخر .. انه يؤمن بأنني لا أصلح إلا لبعث رائحة الطعام في المطبخ ..

– قولي له انه مخطىء ، وانه فشل في قتل البذرة الطيبة .. قولي له لا بد من أن تنبت حتّى ولو دفنت ، ستنبت ..

– سأقول له انني عاجزة عن الهرب من وجودي كإنسانة ، وانني قررت الانضمام الى موكب المنفيين ...

– هذا جيد ..

تعلو وجهها سحابة كآبة ، وتحس بريش الطائر الذي كان يقطن صدرها يتناثر من فمها وعينيها مع كلماتها ...

– سوف تكون مهمتي شاقة .. لقد أقسمت على الوفاء ، وكنت أعني ذلك لما قلته ..

– لقد أقسمت بأن تحنطي عينيك ، فـلا تري بهما إلا ما ترغب عيناه في عكسه .. هذه العلاقة كانت تجسد الجانب المراهق من شرقيتكما ..

– ولكنه درس في الجامعة الأمريكية عدة سنوات ..

– أجل ! كان أحد طلابـي وأنا أعرفه جيداً .. كان يراقص اخوات أصدقائه ولا يسمح لهم بمراقصة أخته .. انه لا يؤمن بمـا يفعل ويهرب من مواجهة الأشياء ..

– كانت تحبه ، تلك الفتاة الساذجة ذات الجديلة ..

– وأنت ؟

– أنا ملتصقة بك ، جذوري تعانق جذورك التي تقودهـا الى حيث الماء .. الى حيث نهر الصفاء يهدر تحت الأرض ، تحت الشوارع المزدحمة.. تحت الأوحال ..

– يجب أن تثبتي ذلك !

– لك ؟

– لنفسك أولاً .. ثم له ..

– كيف ؟

– يجب أن تحملي اليه قليلاً من ماء البحر .. ماء بحرك انت ، يجب أن يكون في عينيك عزم وفي وجهك عمـق واصرار وتحفز .. لا يكفي أن يكون في الزجاجة ماء مالح ..

– ماذا تعني ؟

– كان يريد من زواجكما هرباً لك من أشياء يخافها هو !..

– ولكنني خائفة حقاً .. خائفة من أن لا أجـد البحر .. اقسم لك انني أصبحت أؤمن إيماناً مرعباً بأن البحر هنا مجرد امتداد اسفلتي للشوارع.. وإذا كان ماء .. فلن يكون سوى مجرد ماء وملح تفوح منه رائحـة الأسماك المتفسخة الملتصقة بأعشاب بحرية مشوهة النمو وتطفو عليه أخشاب مراكب نخرها الهرم والدود ...

– أريدك جريئة .. ما دمت قادرة على الفهم فانّك ستكونين تعيسة جداً اذا لم تكوني قادرة على التنفيذ أيضاً ...

– دعنا نذهب معاً ...

– لا تهربي .. ليست القضية أنا وأنت والماء المالح ... انها أنت ، والعالم ... يريدك مثله خائبة،وبلا بحر !.. عليك الآن أن تعرفي نفسك.

– سأذهب وحدي ...

– أجل ! يجب أن توجدي انعتاقك بنفسك .. أقرب الناس اليك ، الحب نفسه عاجز عن أن يمنحك زجاجة من ماء البحر !

***

(الآن أبدأ بحثي .. ماذا لو لم أجد البحر ؟ ماذا لو غرفت من البحر ملء زجاجة وظللت أشعر بأنني لم أجد البحر حقاً ؟ هل أعود الى أين وأرضى بصدفة بلا نوافذ نعبد فيها وثن خيبتنا ؟ ام انني انسلخت عن وجودي السابق وقضي الأمر ، ولم يعد أمامي إلا أن أنوس بين سوري مدينتين ، مدينة مهترئة نبذتني ، ومدينة سورها الأول سراب وسورها الثاني غابة من الأيدي المتماسكة المعروقة) ...

سيارة تقف . « سيرفيس » رأس بيروت .

تصعد . للمرة الأولى لا تركب سيارة أختها الفخمة ...

هذه الشوارع اللاهثة التي أدمنتها تحبها ، تحب كل حجر فيها ، كل بصمة دامية على كل جدار ...

« آخر الخط يا شباب » ..

يوقظها صوت السائق . تهبط .

البحر ..

تسير على الرصيف وتطلّ من عل على البحر .. للمرة الأولى في هذه الزيارة تراه قريباً هكذا .. قوياً ، جليلاً ، مهيباً كشيخ وقور ..

تخرج من حقيبة يدها زجاجة العطر الفارغة . (سوف أملأها حالاً وينتهي كل شيء . لقد صدمت في البداية وصور لي الوهم ان البحر هنا لوحة دقها الخبراء بمهارة على الأفق .. ولكن ، كيف أملأها ؟ الرصيف مرتفع جداً وسوف يكون منظري مضحكاً وأنا أتسلق السور وأهبط الصخور القليلة لأبلغ البحر وأختلس منه حفنة من ماء .. لست هنا حرة .. كل عين هنا تحرمني من مجرد القدرة على السير بخطوات عفوية نحو البحر .. سوف يظن المارة انني مجنونة . ما زلت أخافهم . ما زال يعنيني ما يمكن أن يظنوا ، من الخير لي ان أبحث عن مكان آخر مناسب .

سوف أسير قليلاً ،فقد أجد لنفسي مخرجاً) .

تسير ويدها ملصقة بالافريز الأسود وعيناها على البحر ، وراء السور الأسود .. (لا ريب في أن أيمن قد تحداني دون أن يفهم ما يقول . أم تراه كان يعرف ؟) ...

تسير وتسير .. لا منفذ على البحر . لن تستطيع الحصول على حفنة من البحر ما لم تعرّض نفسها لأن تكون أضحوكة للمدينة ، للعابرين .. (ما دمت أخاف الآخرين دون أن يكون هنالك ما يدعو الى ذلك فإنني لن أحصل على زجاجة من ماء البحر) .

* * *

تمسح عرقاً حاراً كالدم عن جبينها وعن عينيها ..

(لماذا يسورون البحر هكذا ؟) !

زمن طويل مضى وهي تسير على الشاطىء المرتفع تارة ،والمسوّر بقضبان سود تارة أخرى .. زمن طويل مضى وهي تروح وتجيء ، وهي الآن متعبة تحس انها ضئيلة وتلك الأبنية الكبرى تواجهها فاغرة الأفواه كأنها تصرخ بها : البحر لنا أيتها السارقة ..

ـــ ولكنني أريد نصيبي من البحر !

هناك قوة تحارب انعتاقنا . الآخرون لن يمنحوني زجاجة بحر . لن أتخاذل .

المسبح العسكري .

تقترب من الجندي الذي يقف أمام الباب . (لماذا لا أدخل الى أحد المسابح وأتخلص من مشكلة السور الذي يطوقون به البحر هنـا ؟) .. الجندي يعترض طريقها « بطاقتك ؟ »

– اسمح لي بالدخول .

– أين بطاقتك ؟

– لماذا ؟

– ممنوع الدخول بلا بطاقة .

– لماذا ؟ ألا يدخل الناس الى هنا ؟

– يدخلون باشتراك .. أو ببطاقة من (....)

– ولكنني أريد أن أملأ هذه الزجاجة من ماء البحر .. فقط .

لا يصدقها ، تزعجه الكذبة الساذجة : ممنوع .

– قليلاً من ماء البحر الذي تحرسه .

– ممنوع .

– سأدفع ثمنها .

– ممنوع !

تبتعد بينما يدير الجندي وجهه بقرف مدمدماً : بنات اليوم المجنونات..

ثم يضم بندقيتـه ، ويروح ويجيء في حراسة البحر .. البحر للذين يحملون البطاقات . ترى كيف تحصل فتاة بلا بطاقة على زجاجة من ماء البحر ؟

***

(لماذا يسورون البحر هكذا في بيروت ؟ بحري الـذي أبحث عنه لا يمكن أن يكون مسوراً .. انه بلا حدود .

لا أريد ان املأ مجرد زجاجة من الماء المالح أعود بها الى ايمن وفي عيني نظرة منكسرة . بحر أختي موجود في أي مكان : قليل من الماء ، ملعقة من الملح ! اريد ان املأ الزجاجة من بحري .. من بحر سلمان .. من بحر المنفيين المزرق بأحزانهم ، الهائج بثوراتهم ، بأساطيرهم،وقيمهم.. لماذا منعني الجندي من الدخول وأحالني الى السيد (...) ؟ هل قسموا البحر أيضاً الى اقطاعيات وممتلكات ؟ هل غرسوا راياتهم في جثة البحر وقسموه وسيّجوه) ؟

قليلاً من ماء البحر ! كيف ؟

أسهل عليك أن تدخل الى أحد المخازن كالفتيات المحترمات وتشتري له ربطة عنق ، قلم حبر ، علبة لفافات ذهبية ، من أن تملأي هذه الزجاجة بماء بحر حقيقي وتحمليها كأية فتاة.لها بحر !

* * *

« فندق الريفييرا » منتصب وراءها . يرقب وقفتها المتعبة على الرصيف، والبحر في الأسفل يلعق أقدام الصخور بذل ، يصفعها بحقد ، والافريز الأسود حار يلسع يديها اللتين استندت بهما اليه ...

شبان عراة في الأسفل يرطبون بالماء أجسادهم . لماذا لا تنادي أحدهم وترجو منه أن يملأ الزجاجة لها ؟

تصرخ وتلوّح بيدها دون أن تأبه للعابر الذي يحدّق اليها بذهول : يا شاب .. يا شاب .. أنت .. أجل أنت ..

يلتفتون اليها . ما زالت تلوح بيدها كسجينة في جزيرة . أحد الشبان يصعد الصخور نحوها . انه يقترب . سوف تنتهي الأزمة . بطريقة ما تشعر انها تخدع نفسها !

يقف أمامها فتى قوي شبه عار وقد لوحته الشمس واكسبت وجهه لوناً حاراً . وازداد وجهه حرارة وهو يتأملها ويسأل بدهشة : نعم .

ـ أريد أن أطلب منك طلباً .

بحرارة يجيب وهو يتأمل وجهها الفاتن : اطلبي أي شيء ..

ـ اريد ... اريد قليلاً من ماء البحر ...

ـ فقط يا حلوة ؟

تتجاهل يا « حلوة » ...

ـ أرجوك ، املأ لي هذه الزجاجة من ماء البحر .

فتاة تتحرش بعراة البحر !.. لا بأس ، سوف يستجيب للمغازلة الطريفة ..

ـ سأملأها لك من دموعي .. من دمي .

ـ أرجوك بسرعة ..

ـ انتظري ، سوف أرتدي ثيابي وأجيء بعد لحظات .

يركض ليرتدي ثيابه ، ويذكر الليرة اليتيمة في جيبه: سوف يتدبر الأمر على أية حال (اسلوبها في التحرش مبتكر ووجهها جميل وبريء.. انها مبتدئة رائعة) .. يركض ، والزجاجة ما زالت في يدها فارغة ، وصوت مالح كالدموع يهمس في صدرها : الآخرون لا يمكن أن يمنحوا البحر ... لا أحد يستطيع أن يمنحني البحر .

يخرج اليها بعد دقائق ، يرى انها اختفت .

* * *

لا ريب في أنها مشت زمناً طويلاً دون أن تدري . قدماها تثنان كعجلات صدئة مستسلمة لقائد أهوج . الخليج رائع . رأسها ثقيل ، لم تعد تقوى على حمله . الشمس وردة البحر الوحشية ، التي تتفتح كل ليلة في أحضانه ، تملأها غيرة وحسداً .. تلك الشمس السعيدة التي تنغرس حتى أعماق البحر .. انها وحدها تعرف الحقيقة وتحرق كل من يسعى اليها ، كل من يحاول كشف أسرار عشيقها البحر ..

طوال النهار كانت تلهب رأسها لتبعدها عن البحر .. لكنها الآن

ترحل الى أعماقه حيث تأوي وتستريح في كهوف عجيبة الألوان .. وهي لن تستسلم، ستظل تبحث حتى تدرك كنه البحر الذي تحميه الجنية الشمس.

* * *

لا تدري كم من الوقت مضى وهي في جلستها هذه .. كل ما تعرفه انها لما فتحت عينيها ، رأت أن الشمس لم تعد موجودة ، والسماء ليست مظلمة تماماً بعد ، والقمر قد تسلل من مكان ما يمضغ العتمة والريح ..

ووسط نحيب الأمواج هنالك مصباح قوي يضيء ويقترب من الشاطىء.. يلوح ليقظتها المتعبة كالرؤيا بينما القارب يهتز وشبح رجل يتعثر فيه .. المصباح ينوس في يد الرجل العجوز الذي هبط منه ..

تراه من بعيد يسير بطيئاً متعباً ، يقترب . تنهض نحوه راكضة .. تتعثر فجأة . لم تكن تدري انها منهكة هكذا ..

قريباً منه تقف . تراه ، تستنشقه ، تتذوقه . انه عجوز غريب ، لحيته من أعشاب البحر ، الملح والصقيع في أهدابه .

– ماذا تريدين ؟

صوته متقطع كصوت المد والجزر . تحس برغبة عميقة للبكاء أمام هذا الرجل العتيق العتيق ، ككهف عايش البحر طيلة عصور .

لا ريب في انه يفهمها دون أن تفسر ، دون أن تشرح ماذا تعني بالنسبة اليها زجاجة من ماء البحر الحقيقي ، بحرها .

– أريد قليلاً من ماء البحر ، أرجوك ، املأ لي هذه الزجاجة .

أمسك بالزجاجة بين أصابعه التي تبدو كسلاميات عتيقة ، كعظام أسماك أثرية في شاطىء مهجور .

لم يبد على وجهه أية دهشة .. ببساطة ، وبشيء من السرور الخفي حملها واتجه نحو الماء، وعاد بها بعد لحظات مملوءة بماء البحر المالح العذب.

وبلا كلمة ، حملت الزجاجة مهدودة متعبة ، وعلائم نصر منكسر تضيء عينيها فتبدو شاحبة دامعة كشوارع بيروت قبل الفجر .

ولما وقفت على أسفلت الشارع العام ، تذكرت ملايين الكلمات التي كانت تود أن تقولها للشيخ البحر ،والتفتت اليه لتودع في نظرتها الأخيرة زخم كلمات كثيرة لم تقل ، ولكنها لم تجده !

تمتمت : لعله استلقى على الرمال ليستريح ، لا ريب في انه صياد عجوز متعب ..

تحس حدساً مكثفاً عميقاً الى درجة الايمان بأنها لو عادت لتحدثه فإنها لن تجده أبداً .. المصباح قد اختفى .. والقـارب ... ولم يبق إلا سؤال كبير يفرض نفسه .. ترى هل يمنح البحر نفسه ؟ هل يمنح بحرها نفسه ؟ وحتى لو رق كما رق الليلة ومنح نفسه ، ترانا قادرين على الأخذ إذا لم نكن في مستوى العطاء ؟

(كيف ، كيف ، كيف أبداً ... حتى الآن لم أجد النقطة التي يجب أن أنطلق منها . انها ليست الحب ، ولا مساعدة الآخرين ، ولا الاستجداء ، ولا العناد الأعمى ... هنالك شيء ما لم أجده حتى الآن .. أين ؟ وقد نبشت الأشياء حولي .. أين) ؟

* * *

الليل ، والشرفة المفتوحة ..

زجاجة من ماء البحر المالح أمامها على المنضدة . لقد أعدت حقيبتها ، وبعد ساعات يعود النهار وترحل ، وبعد ساعات تحمل الزجاجة الى أيمن.

لا تدري لماذا تحس بأنها لن تجرؤ على أن تقول شيئاً . تحس بانكسار مفجع كهذا الليل العميق .. انها لم تجد البحر حقاً .. لم تجـد البحر .. فلتعترف : رغم ان البحر أبدى استعداده ومنحها نفسه ولكنهـا عاجزة عن الأخذ ، لأنها ... لا تدري لماذا ... فلتعترف ... هذه الزجاجـة أمامها مجرد ماء وملح ، كبحر أختها .. ليست مزرقة بأحزانها ، وليست هائجة بثوراتها وليست مكثفة بقيمها وأساطيرها ..

ماذا تفعل ؟ سوف تكتب لأيمن رسالة تعترّف فيها بالفشل . لـن تذهب . لن تخادع ..

تستعرض حوادث يومها المحموم .. ماذا فعلت ؟

(ترى كيف تحصل فتاة بلا بطاقة على زجاجـة من ماء البحر ؟ الآخرون لا يبالون .. لا أحد يستطيع أن يمنحني البحر .. البحر لا يمنح نفسه حتى ولو أراد .. ما دمت أخاف الآخرين دون أن يكـون هنالك ما يدعو الى ذلك فإنني لن أحصل على زجاجة من ماء البحر .. مـاذا أصنع .. ماذا يا سلمان .. يا سلمان) ...

وتحس بسلمان قريباً منها،بوجهه المضيء كوجه نبي ، بصوته الغامض الآمر كقدر ..

يا سلمان ، اني استنشقك في الليل ، في نسيم البحر المالح .. مـاذا أفعل ؟ تأوي الى فراشها ، متعبة ، متعبة ، كأن الشمس ما زالت تلهب رأسها بالحمى .. ليتني أنام سريعاً لأستريح .

تسير وتسير عارية القدمين في دروب طويلة من الحصى والماء البـارد على شاطىء بحر .. تريد أن تقترب من الماء وتشرب لكن عشرات العيون تتأملها بسخريـة ، عشرات الأصابع تشير اليها باحتقار .. وهي تخاف شبكة الأصابع الساخرة ، وهي ترتعد أمام النظرات العنكبوتية المستنكرة. تتسمر في مكانهـا . يغيض البحر ويتحول الى مستنقعات تفور بالحيتان والتماسيح وبموسيقى من عويل . الشمس تقترب وتقـترب . العرق يسيح منها .. الشمس تكاد تحرقها،تلتصق بوجهها . بعينيها . تصرخ . تسقط وهي تهتف : يا سلمان . أيمن يضحك شامتاً . تسمع ضحكته من كـل مكان دون أن تراه . ضحكاته تنبع من أعضائها الخائبة . شفتاه تتفتحان كالقروح على يديها وساعديها وتقهقهان وتصاب أعضاؤهـا برعشات جسد يتعذب بالكهرباء ، تسقط فجأة والشلل يستولي عليها . سلمان يريـد أن يلتفت لكنـه ملجوم كالحصان لا يملك إلا أن يسير . قف يا سلمان .

الشفاه الساخرة تتفتّح كالقروح الدامية في جسدها كله . ضحكة أيمن الوحشية تملأ المكان كأفراح عملاق شرير . يا سلمان .. ريش الطائر يتطاير من فمها من عينيها ، من فتحتي منخريها .. يا سلمان .. ينحشر الريش في حلقها ، جديلة فاحمة تلتف حول عنقها وتشدها الى الأرض ، الى الأرض ، الى الأرض ، الى حيث هي أفعى من ملايين الأفاعي في المستنقع الذي كان بحراً .. يا سلمان .. يا سلمان » ..

تفتح عينيها وتقف ويقظة حمراء تتألق في عينيها . تتقدم من المنضدة حيث أدوات الكتابة وزجاجة العطر وماء البحر المزعوم . تضرب الزجاجة بيدها . تنقلب . ينسكب الماء منها بسرعة ويهرع نحو الورق النشاف .. ورقة النشاف تمتص البحر بشراهة ، بشراهة .. لحظات ولم يتبق من الماء شيء .

لقد جف البحر لما أخافتني نظراتهم .. الآن ، الآن فقط عرفت كيف أبدأ .. ومن أين يجب أن نبدأ جميعاً ..

* * *

– الى أين ؟ السيارة تنتظرك . هل غيرت رأيك ؟

– شكراً سأخرج وحدي قليلاً ، وحينما أعود سأرحل فوراً الى دمشق .

– سوف ينتظرك السائق على أية حال ، تستطيعين الرحيل متى شئت.

– شكراً أيتها الأخت (العزيزة) .. وتهمس لنفسها (المسكينة) ..

– هل قضيت البارحة ليلة هادئة ؟

– لماذا ؟

– سمعتك تصرخين .

– أنا ؟

– أجل ! كنت تقولين شيئاً لم أفهمه،ولكن اسم سلمان كان واضحاً.. كنت تنادينه ..

– هذا غريب !

تخرج من الدار . سبرفيس رأس بيروت . زجاجة فارغة في حقيبة يدها الصغيرة .. الرصيف المرتفع . البحر خلف السور الأسود ، البحر المهجور المزرق بالأحزان ، الكثيف بالقيم والأساطير ..

أمام السور مجموعة من الشبان والفتيات المدللات كسياراتهم الممتدة على طول الرصيف .. تقترب منهم ومن السور وتلحظ أن نظراتهم تنزلق عليها في كثير من اللامبالاة .

تقف أمام السور وكأنه السور الذي يفصل بين حياتين ، بين مرحلتين، وتقفز فوقه ، تجتازه نحو الناحية الأخرى ، ناحية البحر ،وتسير مرفوعة الرأس .

لا تلتفت ، لا يهمها فضولهم ، تحس بنظراتهم جميعاً تلتقي على ظهرها كالنبال المسمومة ، لا تلتفت ، تقفز على الصخور بخفة وتنحدر نحو الماء ببساطة ، الزجاجة في يدها ، قبل أن تملأ الزجاجة بالماء تلتفت اليهم وقد تفجر في عينيها بريق تحدّ عميق الجذور ..

وتراهم جميعاً ينظرون اليها ساخرين،يتحدثون بصوت مرتفع ويشيرون بأيديهم ، لا تبالي ، تحس أن العالم الخارجي لم يعد كل شيء ، لم يعد يفرض عليها قوانينه بأجمعها ، لقد قررت أن تتفهم الأشياء ، أن تختار الأشياء التي تخضع لها .

لماذا تخجل ما دامت لا تفعل شيئاً تحس بفطرتها ونظرتها المعزولة عن المؤثرات الخارجية انه مخجل؟ألمجرد ان الناس يتدخلون في حياتها بنظراتهم البله عليها أن تخجل ؟

تملأ الزجاجة بالماء .. من البداية كان علي ان املأها بنفسي، بيدي ، بلا خجل .كان عليّ ان أقفز السور ما دمت لا أقترف شيئاً يشوه انسانيتي كما أراها أنا ..

تخرج الزجاجة من الماء بعد لحظات والقطرات الرائعة ما زالت تبللها وتبلل يدها حتى الرسغ ، وتعود نحو السور والرصيف مرفوعة الرأس تواجه النظرات الفضولية ، والتعليقات الساخرة بكثير من الاعتزاز . (بيدي أنا كان علي أن أخلق بحري ، أن أكون إنسانة جديرة به) :.

تصل الى السور وتقفز من جديد الى الرصيف .. تمر بهم سعيدة ، لامبالية . (لقد اقتلعت عيونكم المدقوقة في وجهي ، وبصقت كلماتكم الملصقة على لساني ، وتحررت من آليتي في الإحساس ، من ردود الفعل المسبقة الجماعية .. لقد ولدت اليوم .. الآن) ...

تسير وتعليقاتهم الساخرة تزداد . لقد وجدوا مادة للضحك . وتضحك. لماذا يسخرون الآن ؟ ألم يكن منظري وأنا أقفز كحيوان غريب وأرقص التويست أكثر سخافة وبلاهة مما هو الآن ؟ ألم يكن وجهي بلا تعبير وجسدي بلا ضابط ؟ أما كنت أهين انسانيتي ساعتها .. لماذا لم يسخروا وقتها ؟

الآن ، الآن فقط تعود الى دمشق .. ماذا تقول لأيمن ؟ ستقول له كل شيء ، ستقول له أن لا بحر في بيروت للذين لا بحر في نفوسهم .. أما هي،وسلمان فقد وجدا دربهما ... الطائر ؟ مات مع الضفيرة والخوف والعقل الذي يتبنى وجهات نظر الآخرين دون أن يفكر ...

وتسير ، بيروت،يا حلوة ، يا حزينة ، يا وجهك الملطخ بالاصباغ، لست مزيفة ، لكن الاصباغ صارت جلد العالم ، ولست شريرة ، لأنك دمشق وباريس والصين وكل مكان .. ولأنك من نفوسنا .. ويوم نجد جميعاً بحرنا يعود اليك بحرك .

ويبكي الرقم ٢١٦

كنغمة ناي خافتة كانت تنساب الى جانبه مخدرة منبهة .. وهو يسير كدمية حدّد صانع الدمى خط سيرها .. انه مبعوث الحكومة الى هاواي لمدة شهر . انقضت مدته . قام بمهمته . وعليه الآن أن يركب الطائرة . المقعد الثاني الى اليمين . يهبط في باريس . ينام ليلة في فندق – البارون – الغرفة رقم ٢١٦ . يتابع رحلته الى مدينته . يعود الى داره . يرسو في السرير قرب زوجته .

الخادم الذي يسير أمامه وقد حمل حقائبه يقف . يضعها على الأرض الى جانب حقائب سائر المسافرين ثم يحرك ذراعيه بحرية يحسد عليها ... « آه لو أحرر ذراعي مرة واحـدة لأضمها الى صدري وأغرسها فيه أبداً ... » يعرف انها هي أيضاً تتمزق بصمت .. لكنه يعرف أيضاً انها تؤمن إيماناً عميقاً بأن شيئاً رائعاً سوف ينبثق من ألمها ... ان لها من أساطيرها ما يحميها ..

وهو يحب تمردها المستسلم ، ويحب قوتها المستكينة .. لماذا اختارتها الحكومة لترافقه ؟ لماذا حملوها طوق الياسمين وتركوها تلف به عنقه ساعة وصوله الى بلادهم ؟ يا للعنة الطوق الحبيب .

.. لماذا قبلته ؟ لماذا رافقته طوال الشهر ؟ أليس في مدينتهم سكرتير رجل فظ يرافقه عوضاً عنها ؟ آه كم أحب أساطيرها وأغانيها وأسلوبها الانساني الغريب في التفكير !

انها تهمس ، تذكره بنسيم الشاطىء .. ما أعذب لغتها الانكليزية :
« أحقاً انك سترحل » !

أهدابه ندية .. « أجل » .

تضحك . ضحكتها الخافتة الحزينة التي تذكره بظلال الآلهة في زوايا المعابد . تهتف به : « لماذا نبكي من أجل كلمة لم نقلها ، وساعة لم نعشها ، ومدينة لم نعرفها » ؟

هذه الفيلسوفة الصغيرة يعرف ماذا تريد أن تقول .. كان حتى يوم التقاها يؤمن بأن أجمل الكلمات هي تلك التي لم يقلها بعد ، وأجمل الساعات هي تلك التي لم يعشها بعد ، أما الآن ... فهو يريد الواقع .. يريد أن يحقق واقعاً يؤمن بأنه يرضيه .

تهتف به من جديد : سوف تنبت زهرة حمراء في الجبل .. زهرة « غردوشكا » جديدة ... هل تذكر ؟

لا يجيب . انه لا يستطيع الا أن يذكر كل شيء .. حكايتها وشم من جمر في أعماقه .

هدير الطائرات لن يصدقه . لن يصدق انه سيرحل . محركاتها التي بدأت تدور بوحشية تخترق دماغه في كل دورة . لن يصدق انه سيفارق عبير شعرها . لن يترك يدها الصغيرة تنزلق من بين أصابعه . المضيفة تحثه على الصعود . سوف تمضي الطائرة وتخلفه . لن ينتزع نفسه من ليل عينيها المنمنم .. ما معنى ان يأتي إذا كان لا يملك الا أن يمضي ؟ انه يريد أن يبقى هنا في الشاطىء المسحور .. يختار أرضاً صغيرة عند الشاطىء ويبتني كوخاً له ولها .. ويجدل لها الليل والقمر حكايا عذبة مخدرة .. ما معنى أن يكون إذا كان لا يملك وجوده ؟ جاء بعض المسؤولين يودعونه . يصافحهم . وجهها الأسمر يغيب في ضبابة رمادية . طوق الياسمين خلفته في عنقه . يا لوحشية أن يكون موظفاً كبيراً .

***

في المقعد الثاني على اليمين يجلس . الطائرة تئن بعذبه . يطير على علو منخفض فوق الشاطىء الذي أحالته زهور الـ « غردوشكا » البيض ناصعاً كجنح حمامة . يطير على علو مرتفع فوق الجبل المجاور الذي أحالته زهور الـ « غردوشكا » الحمر دامياً .. أبداً لن تنمو زهرة حمراء قرب زهرة بيضاء .. هكذا خبرته ذات مرة كأنها تنتحب .

مرة ...

كانا يطيران فراشتين بين تلك الأزاهير ... قطف زهرة وأخذ يتأملها.. لاحظ أن وريقاتها التويجيه ليست كاملة . ان كل واحدة هي نصف وريقة فقدت نصفها الأيمن .. انها زهرة معذبة .. نصف زهرة .. عبثت بها يد شريرة وتركتها تندب نصفها الذي لن يكون والذي ينمو في الجبل المقابل ...

وتطلع الى الجبل المغطى بالأزاهير الحمر ثم استكانت نظراته في ليل عينيها المنمنم بينما هي تروي له الاسطورة .. اسطورة الغردوشكا ...

في سالف العصور والأزمان ...

عاش في جزيرتنا ملك له ابن مشهور بالطيبة والقوة .. وأحب ولي العهد هذا فتاة من فتيات الشعب اسمها « غردوشكا » لكن تقاليد دهور وقفت بينهما .. فحزن الأمير حزناً شديداً وذوى ثم مات .. ودفن في الشاطىء ، مسرح هواهما ، حسب وصيته ، وبعد موته بأيام ماتت « غردوشكا » الصغيرة .. ودفنت بعيداً عنه في الجبل ... وبعد موتهما بأيام هبت عاصفة من عويل وأمطار وصواعق .. ولما انجلت ، وخرج الناس من بيوتهم ، وجدوا أن أزاهير بيضاً قد غطت الشاطىء . تقابلها أزاهير حمر مماثلة في الجبل المقابل .. وان تويجات الأزاهير البيض قد فقدت نصفها الأيمن وان أزاهير الجبل قد فقدت نصفها الأيسر .. ولم يكن بين الزهور البيض زهرة حمراء واحدة !

ويومها .. قطفا « غردوشكا » حمراء من الجبل ، وغردوشكا بيضاء

من الشاطىء، وحملا معها زهرة واحدة كاملة نصفها أحمر ونصفها أبيض ..

وكان في عينيها حزن مفجع غريب .. انها تدرك أكثر منه انهما لن يستطيعا محاربة المقعد الثاني الى اليمين في الطائرة ، والغرفة رقم ٢١٦ في باريس ، بأسطورة !

* * *

باريس وفندق البارون ... والغرفـة ٢١٦ .. الفراش الأبيض الذي يضمه أسود . والجدار الأزرق أسود . والحمرة الصهباء سوداء . ضحكات الغانية في الغرفة المجاورة سوداء . صوت أجراس الكنيسة أسود . الليل الأسود أسود ... وهو أسود .. لماذا عشق السواد خطاً أبيض اعترض حياته مرة ؟ يكاد يختنق . اين عبير شعرها ؟ المدينة الصاخبة ميتة .. سوف يقرع الجرس ليتأكد من أن في المدينة سواه . سوف يطلب كأس ماء . سوف يسأل عن الساعة .. عن أي شيء . يرفع سماعة الهاتف .. يجيبه صوت خشن : تريد ماء ؟ من أنت ؟

– أنا ... أنا لا أحد ... أنا الغرفة ٢١٦ !

* * *

الى جانب زوجته عاد يرسو .. مركباً صدئاً أنهكته المجاديف الآمرة.

وعند نافذة غرفتـه ، حيث ينسكب ضجيج الشارع وتتماوت أضواء الاعلانات ، رأى أن زهرة بيضاء تولد ... وان زهرة حمراء ، نصف زهرة، تنبثق في تلك اللحظة بالذات من صخرة الجبل البعيد في هاواي ..

ويبكي الرقم ٢١٦ ...

ما كان أحلى الكلمات التي لم يقلها .. والساعات التي لم يعشها ... غداً يرحل ثانية الى مكان آخر .. ويمنحونه رقماً جديداً ... متى يتحرر المركب من مجاديفه ؟

... ويبكي الرقم ٢١٦ .

فهرست

قصص وروايات

عيناك قدري (قصص) - (الطبعة العاشرة)

لا بحر في بيروت (قصص) - (الطبعة الثامنة)

ليل الغرباء (قصص) - (الطبعة الثامنة)

رحيل المرافئ القديمة (قصص) - (الطبعة السابعة)

بيروت ٧٥ (رواية) - (الطبعة الخامسة)

كوابيس بيروت (رواية) - (الطبعة السادسة)

ليلة المليار (رواية) - (الطبعة الثانية)

حب (الطبعة التاسعة)

أعلنت عليك الحب (الطبعة التاسعة)

غربة تحت الصفر (الطبعة الأولى)

الأعماق المحتلة (الطبعة الأولى)

أشهد عكس الريح (الطبعة الثانية)

منشورات غادة السمان

الأعمال غير الكاملة

زمن الحب الآخر (قصص) - (الطبعة الخامسة)

الجسد حقيبة سفر (الطبعة الرابعة)

السباحة في بحيرة الشيطان (الطبعة الخامسة)

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر (الطبعة الرابعة)

اعتقال لحظة هاربة (الطبعة الخامسة)

مواطنة متلبسة بالقراءة (الطبعة الرابعة)

الرغيف ينبض كالقلب (الطبعة الثالثة)

ع.غ. تتفرس (الطبعة الرابعة)

صفارة إنذار داخل رأسي (الطبعة الثالثة)

كتابات غير ملتزمة (الطبعة الثانية)

الحب من الوريد إلى الوريد (الطبعة الرابعة)

القبيلة تستجوب القتيلة (الطبعة الثانية)

البحر يحاكم سمكة (الطبعة الثانية)

تسكع داخل جرح الطبعة الأولى)



□ «رائعة . رائعة بأسلوبها وجوّها . . .»

ـ توفيق يوسف عوّاد

□ «غادة السمّان اليوم من ندرة نادرة من المبدعين الذين استطاعوا أن يواكبوا عطاءهم الفني الجيد بانتشار جماهيري واسع النطاق . وأعزو السبب في أن غادة السمّان أصبحت نجمة ساطعة في سماء الأدب العربي إلى أنها لم تبتذل أدبها أو تركب موجة تيار سياسي ، بل حققت ما حققته بجهدها ودأبها وجرأتها وموهبتها الأكيدة» .

ـ د . رياض عصمت

□ «غادة . . فكر رأى ذاق . ذاق النبع الأصيل ، نبع الحياة ، فكان من أصدق الصيحات في أدبنا العربي الحديث ، وقلم تنطق الحياة الصادقة فيه ، فلا يعرف الزيف إليه سبيلاً» .

ـ عبد الله عبد الدايم

□ «تنفذ بك قصص غادة السمّان إلى أغوار للنفس مائجة بالضباب واللهب ، وبالتناقض والاضطراب . . وحسبها أنها لا تقف عند ما ترى وتحس بل تحن أبداً إلى أغوار أعمق وأبعد . وإلى مزيد من الاحساس بزخم الحياة وتفاعل أضدادها . وحسبها أنها بذلك تثور فنسر ، وأنها لا تريدك أن ترضى عنها أو أن ترضى عن نفسك . . .»

ـ قسطنطين زريق

□ «كاتبة من طراز رفيع . بدأت من القمة . كلمتها مشحونة بفجيعة المرأة العربية» .

ـ ياسين رفاعية

منشورات غادة السمان